سورة آل عمران

مدنية، مائتان آية، ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاث كلمات، أربعة عشر ألفاً وتسعمائة وسبعة وثمانون حرفاً

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الٓمٓ ٱللَّهُ لاۤ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَيُّ} أي الذي لا يموت ولا يزول { ٱلْقَيُّومُ} أي القائم بذاته والقائم بتدبير خلقه.

قال الكلبي والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق: نزلت هذه الآيات في شأن وفد نصارى نجران، وكانوا ستين راكباً قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا المسجد حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم:

أحدهم: أميرهم واسمه عبد المسيح.

والثاني: مشيرهم وذو رأيهم واسمه الأيهم.

والثالث: حبرهم يقال له: أبو حارثة بن علقمة. فكلم الأيهم وعبد المسيح فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسلما» قالا قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاثة أشياء: إثباتكما لله ولداً، وعبادتكم للصليب، وأكلكما الخنزير». قالوا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوهٰ وخاصموه صلى الله عليه وسلم في عيسى. فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟؟». قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟». قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيِّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟». قالوا: بلى. قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟». قالوا: لا. قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟». قالوا: بلى. قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علمه الله؟». قالوا: لا. قال: «فإن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف يشاء فهل تعلمون ذلك؟» قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟» قالوا: بلى. قال: «وكيف يكون هذا كما زعمتم؟».

فسكتوا، فأنزل الله تعالى من ابتداء السورة إلى آية المباهلة تثبيتاً لما احتج به النبي عليهم {نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} أي القرآن.

وقرىء قراءة شاذة بتخفيف نزل ورفع الكتاب {بِٱلْحَقِّ} أي بالعدل في أحكامه أو بالصدق في أخباره وفي وعده ووعيده، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله تعالى، أو بالقول الفصل وليس بالهزل ولا بالمعاني الفاسدة المتناقضة. {مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي لما تقدمه من الكتب السالفة في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيه الله تعالى عما لا يليق بشأنه تعالى وفي الأمر بالعدل والإحسان، وفي أنباء الأنبياء والأمم الخالية وفي بعض الشرائع. {وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ} جملة على موسى بن عمران، {وَٱلإِنجِيلَ} جملة على عيسى ابن مريم {مِن قَبْلُ} أي من قبل تنزيل القرآن {هُدًى لِّلنَّاسِ} أي حال كونهما هاديين من الضلالة، أو أنزل هذه الكتب الثلاثة لهداية الناس {وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ} قيل: المراد الزبور فإنه مشتمل على المواعظ الداعية إلى الخير، الزاجرة عن الشر، الفارقة بين الحق والباطل، ثم المختار عند الفخر الرازي أن المراد من الفرقان هو المعجزات التي قرنها تعالى بإنزال هذه الكتب الثلاثة لأنه لما أظهر الله تعالى تلك المعجزات على وفق دعوى الرسل حصلت المفارقة بين دعوى الصادق ودعوى الكاذب، فالمعجزة هي الفرقان. {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ} أي القرآن وغيره كوفد بني نجران ونحوهم بأن كذبوا بالآيات الناطقة بالتوحيد والتنزيه المبشّرة بنزول القرآن ومبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} بسبب كفرهم بها {وَٱللَّهُ عَزِيزٌ} أي غالب لا يغلب {ذُو ٱنتِقَامٍ} أي عقوبة عظيمة. فالعزيز إشارة إلى القدرة التامة على العقاب، وذو الانتقام إشارة إلى كونه فاعلاً للعقاب. فالأول صفة الذات، والثاني صفة الفعل. {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّمَآءِ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ} قصيراً أو طويلاً، حسناً أو قبيحاً، ذكراً أو أنثى، سعيداً أو شقياً.

<ص: 87>

وهذه الآية واردة في الرد على النصارى. وذلك أن النصارى ادعوا إلهية عيسى بأمرين: بالعلم والقدرة. فإن عيسى كان يخبر عن الغيوب فيقول لهذا: أنت أكلت في دارك كذا، وصنعت في دارك كذا. وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، ثم إنه تعالى استدل

على بطلان قولهم في إلهية عيسى وفي التثليث بقوله تعالى: {ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ} فالإله يجب أن يكون حياً قيوماً، وعيسى لم يكن كذلك. فيلزم القطع بأنه لم يكن إلهاً. ولما قالوا: إن عيسى أخبر عن الغيوب فوجب أن يكون إلهاً، فرد الله عليهم بقوله: {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْء فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّمَاء}. والمعنى لا يلزم من كونه عالماً ببعض المغيبات أن يكون إلهاً لاحتمال أنه علم ذلك بتعليم الله تعالى له ذلك. ولما قالوا: إن عيسى كان يحيي الموتى فوجب أن يكون إلهاً، فرد الله عليهم بقوله: {هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء}. والمعنى إن حصول الإحياء على وفق قوله عليه السلام في بعض الصور لا يدل على كونه إلهاً لاحتمال أن الله تعالى أكرمه بذلك الإحياء إظهاراً لمعجزته وإكراماً له. ولما قالوا: يأيها المسلمون أنتم توافقوننا على أن عيسى لم يكن له أب من البشر فوجب أن يكون ابناً لله، فأجاب الله تعالى عن ذلك أيضاً بقوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء} فإن هذا التصوير لما كان من الله تعالى فإن شاء صوَّر من نطفة الأب، وإن شاء صوَّره ابتداء من غير أب. ولما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: ألست تقول: إن عيسى روح الله وكلمته؟ فهذا يدل على أنه ابن اللهٰ فأجاب الله عن ذلك بأن هذا اللفظ من باب المتشابهات فوجب رده إلى التأويل وذلك هو المراد بقوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ آيَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ} فظهر بذلك المذكور أن قوله تعالى: {ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ} إشارة إلى أن عيسى ليس بالإله ولا ابن الإله. وأما قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْء} فهو جواب عن الشبهة المتعلقة بالعلم. وقوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ} جواب عن تمسكهم بقدرة عيسى على الإحياء ونحوه. لأنه لو قدر على الإحياء لقدر على الإماتة، ولو قدر على الإماتة لأمات اليهود الذين قتلوه وعلى زعم النصارى فثبت أن حصول الإحياء في بعض الصور لا يدل على كونه إلهاً، وهو جواب أيضاً عن تمسكهم بأن من لم يكن له أب من البشر وجب أن يكون ابناً لله، فكأنه تعالى يقول كيف يكون عيسى ولد الله وقد صوَّره في الرحم والمصوِّر لا يكون أباً للمصوَّر. وأما قوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} إلى آخر الآيات فهو جواب عن تمسكهم بما ورد في القرآن: أن عيسى روح الله وكلمته، ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التوحيد زجراً لسائر النصارى عن قولهم بالتثليث فقال: {لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} فالعزيز

إشارة إلى كمال القدرة، والحكيم إشارة إلى كمال العلم وهذا تثبيت لما تقدم من أن علم عيسى ببعض الغيوب وقدرته على الإحياء في بعض الصور لا يكفي في كونه إلهاً. فإن الإله لا بدّ وأن يكون كامل القدرة وهو العزيز وكامل العلم وهو الحكيم.{هُوَ ٱلَّذِىۤ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} أي القرآن {مِنْهُ آيَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ} أي محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال، قطعية الدلالة على المعنى المراد. {هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ} أي أصل في الكتاب وعمدة ترد إليها آيات متشابهات. ومثال المتشابه قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ} (الإسراء: 61). فظاهر هذا الكلام أنهم يؤمرون بأن يفسقوا والمحكم قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاء} (الأعراف: 82) رداً على الكفار فيما حكى عنهم وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها والآية المتشابهة قوله تعالى: {نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} (التوبة: 76). والآية المحكمة قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً}. (مريم: 46) {وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ} أي وآيات أخر محتملات لمعان متشابهة لا يتضح مقصودها لإجمال أو مخالفة ظاهرة إلا بنظر دقيق وتأمل أنيق {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ

<ص: 88>
زَيْغٌ} أي ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ} أي فيتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب { ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ} أي طلب الفتنة في الدين وهي الضلال عنه فإنهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في الدين صار بعضهم مخالفاً لبعض، وذلك يفضي إلى الهرج والتقاتل {وَ ٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ} أي وطلب تأويل المتشابه على ما ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان، والمنصف يحمل الأمر في الآيات على أقسام ثلاثة:

أحدها: ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية فذلك هو المحكم حقاً.

وثانيها: الذي قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها فذاك هو الذي يحكم فيه بأن مراد الله تعالى غير ظاهره.

وثالثها: الذي لا يوجد مثل هذه الدلائل على طرفي ثبوته وانتفائه فيكون من حقه التوقف فيه، ويكون ذلك متشابهاً، بمعنى أن الأمر اشتبه فيه ولم يتميز أحد الجانبين عن الآخر، إلا أن الظن الراجح حاصل في إجرائها على ظواهرها {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ} أي وما يعلم تأويل المتشابه حقيقة إلا الله وحده.

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير لا يمكن لأحد جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير يعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى. {وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ} أي بالكتاب {كُلٌّ} أي كل واحد من المحكم والمتشابه {مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} والراسخ في العلم: هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية، وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية، وعرف أنه تعالى لا يتكلم بالباطل والعبث، فإذا رأى شيئاً متشابهاً ودل الدليل القطعي على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى علم حينئذ قطعاً أن مراد الله شيء آخر سوى ما دلّ عليه ظاهره، ثم فوض تعيين ذلك المراد إلى علمه تعالى وقطع بأن ذلك المعنى على أي شيء كان فهو الحق والصواب، لأنه علم أن ذلك المتشابه لا بدّ وأن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ} أي وما يتعظ بما في القرآن إلا ذوو العقول الكاملة الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائفة وهذا مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وهذه الآية دالة على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ولا يفسرون القرآن إلا بما يطابق دلائل العقول ويوافق اللغة والإعراب، ومن تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحراً في علم الأصول وفي علم اللغة والنحو كان في غاية البعد عن الله تعالى. ولما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات تضرعوا إلى الله تعالى بقولهم: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} أي لا تمل قلوبنا عن دينك بعد إذ هديتنا لدينك أو يقال: يا ربنا لا تجعل قلوبنا مائلة إلى الباطل بعد أن تجعلها مائلة إلى الحق {وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} أي نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب، ونور الطاعة والعبودية والخدمة في الأعضاء، وسهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية في الدنيا، وسهولة سكرات الموت عند الموت، وسهولة السؤال والظلمة في القبر وغفران السيئات وترجيح الحسنات في القيامة. {إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ} لكل مطلوب فإن هذا الذي طلبته منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة إليَّ لكنه حقير بالنسبة إلى كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك». {رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي يا ربنا إنك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك في وقوعه فجازنا فيه أحسن الجزاء {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُخْلِفُ

ٱلْمِيعَادَ} أي الوعد وهذا من بقية كلام الراسخين في العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من ربهم أن يصونهم عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية وأنواع الرحمة فكأنهم قالوا: ليس غرضنا من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها منقرضة وإنما غرضنا الأعظم منه ما يتعلق

<ص: 89>
بالآخرة فإنا نعلم أنك يا إلٰهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ونعلم أن وعدك بالجزاء والحساب، والميزان والصراط والجنة والنار لا يكون خلفاً، فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته الهداية والرحمة بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد. {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوٰلُهُمْ وَلاَ أَوْلٰدُهُم} أي إن الذين كفروا ككعب بن الأشرف وأصحابه وأبي جهل وأصحابه لن تنفعهم كثرة أموالهم وكثرة أولادهم. {مِّنَ ٱللَّهِ} أي من عذاب الله أو عند الله {شَيْئًا}. وقيل: إن المراد بهؤلاء وفد نجران. وذلك لأن أبا حارثة بن علقمة قال لأخيه كرز: إني لأعلم أن محمداً رسول الله حقاً وهو النبي الذي كنا ننتظره، ولكنني إن أظهرت إيماني بمحمد أخذ ملوك الروم مني ما أعطوني من المال الكثير والجاه، فالله تعالى بيَّن أن أموالهم وأولادهم لا تدفع عذاب الله في الدنيا والآخرة. نعم إن اللفظ عام وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ {وَأُولَٰئِكَ} المتصفون بالكفر {هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ} أي حطب النار الذي تسعر به {كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ} أي شأن هؤلاء في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم كشأن آل فرعون في التكذيب بموسى {وَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي من مكذبي الرسل كقوم هود وقوم صالح {كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا} وهي المعجزات. ومتى كذبوا بها فقد كذبوا بالأنبياء بلا شك {فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ} أي عاقبهم الله بتكذيبهم المعجزات الدالة على صدق الرسل. وإنما استعمل الأخذ في العقاب لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأسور المأخوذ لا يقدر على التخلص {وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما غزا قريشاً في بدر ورجع إلى المدينة جمع يهود بني قينقاع في سوق بني قينقاع وقال: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً يوم بدر فقد عرفتم أني نبيّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم». فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك إن قتلت نفراً من قريش أغماراً لا يعرفون القتال لو قاتلتنا لعرفت

فأنزل الله تعالى قوله هذا: {قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} هم يهود بني قينقاع {سَتُغْلَبُونَ} عن قريب في الدنيا وقد صدق الله تعالى وعده بقتل بني قريظة، فقد قتل منهم النبي صلى الله عليه وسلم في يوم واحد ستمائة جمعهم في سوق بني قينقاع، وأمر السياف بضرب أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها. وبإجلاء بني النضير، وفتح خبير، وضرب الجزية على أهلها. وبالأسر على بعض كل. {وَتُحْشَرُونَ} في الآخرة {إِلَىٰ جَهَنَّمَ} دلت الآية على حصول البعث في يوم القيامة والنشر والحشر وعلى أن مرد الكافرين النار {وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ} أي الفراش جهنم.

وقرأ حمزة والكسائي بالغيبة في الفعلين أي بلغهم أنهم سيغلبون ويحشرون. والباقون بالخطاب أي قل لهم في خطابك إياهم ستغلبون وتحشرون. والفرق بينهما أنه على الخطاب يكون الإخبار بمعنى كلام الله تعالى، وعلى الغيبة تكون بلفظه. {قَدْ كَانَ لَكُمْ} أيها اليهود {ءَايَةٌ} أي علامة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم {فِي فِئَتَيْنِ} أي فرقتين { ٱلْتَقَتَا} بالقتال يوم بدر {فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي في طاعة الله وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، بين كل أربعة منهم بعير، ومعهم من الدروع ستة ومن السيوف ثمانية، ومن الخيل فرسان للمقداد بن عمر ولمرثد بن أبي مرثد. {وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ} أي وجماعة أخرى كافرة بالله والرسول وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وفيهم أبو سفيان وأبو جهل، وقادوا مائة فرس، وكانت معهم من الإبل سبعمائة، وأهل الخيل كلهم كانوا دارعين وكان في الرجال دروع سوى ذلك {يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ} أي يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً، وعشرين رأياً ظاهراً عياناً بالعين. في ذلك أنه تعالى كثَّر المسلمين في أعين المشركين مع

<ص: 90>

قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم.

قال ابن عباس: يرون أنفسهم مثلي أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. وقرأ نافع وأبان عن عاصم من السبعة، ويعقوب ترونهم بالخطاب. والمعنى ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة ومع ذلك غلبهم المؤمنون مع قلتهم جداً. فيكون هذا أبلغ في إكرام المؤمنين وعناية الله بهم {وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ} أي يقوي {بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ} ولو بدون الأسباب العادلة {إِنَّ

فِى ذٰلِكَ} أي في نصرة الله لمحمد يوم بدر. ويقال: أي في رؤية القليل كثيراً من غلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكي السلاح {لاوْلِى ٱلأَبْصٰرِ} أي لذوي العقول ووجه نظم هذه الآية المتقدمة وهي قوله تعالى: {سَتُغْلَبُونَ} نزلت في شأن اليهود وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الإسلام أظهروا التمرد وقالوا: لسنا أمثال قريش في الضعف وقلة المعرفة بالقتال، بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال كل من ينازعنا. فالله تعالى قال لهم: إنكم وإن كنتم أقوياء وأرباب العدد والعدة فإنكم ستغلبون. ثم ذكر الله تعالى ما يجري مجرى الدلالة على صحة ذلك القول فقال: {قَدْ كَانَ لَكُمْ ءايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا}. ثم قيل: روينا أن أبا حارثة بن علقمة النصراني اعترف لأخيه بأنه يعرف صدق محمد صلى الله عليه وسلم في قوله، إلا أنه لا يقر بذلك خوفاً من أن يأخذ منه ملوك الروم المال والجاه. وأيضاً روينا أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا اليهود إلى الإسلام بعد غزوة بدر أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح، فبيَّن الله تعالى أن هذه الأشياء وغيرها من متاع الدنيا زائلة وأن الآخرة خير وأبقى فقال: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوٰتِ} أي الأشياء المشتهيات {مِنَ ٱلنِّسَآءِ} وإنما قدمهن على الكل لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم {وَ ٱلْبَنِينَ} ولما كان حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى، خصَّه الله تعالى بالذكر، ووجه التمتع بهم من حيث السرور بهم وغير ذلك. {وَ ٱلْقَنٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَ ٱلْفِضَّةِ} والقنطار بلسان الروم ملء مسك ثور من ذهب أو فضة. والقنطار واحد والقناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة. ومعنى القناطير المقنطرة أي الأموال المجموعة والأموال المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير وإنما كانا محبوبين لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء {وَ ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ} أي المطهمة الحسان بأن تكون غراً محجلة {وَٱلأَنْعٰمِ} وهي الإبل والبقر والغنم {وَ ٱلْحَرْثِ} أي المزروع {ذٰلِكَ} أي جميع ما سبق {مَتٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} أي منفعة للناس في الدنيا ثم تفنى. {وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَأَبِ} أي المرجع في الآخرة، وهو الجنة. {قُلْ} يا أشرف الخلق للكفار أو للناس عامة وهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل ما أجمل أولاً في قوله تعالى: {وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَأَبِ} {أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذٰلِكُمْ} أي زينة الدنيا {لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ} أي تبتلوا إلى الله تعالى وأعرضوا عما سواه فلا تشغلهم الزينة عن طاعة الله تعالى {عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ} أي عند ربهم بساتين تطرد من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والعسل واللبن والماء. {خَالِدِينَ فِيهَا} أي مقيمين في الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها. {وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ} أي مهذبة من الحيض والنفاس والبصاق، والمني وتشويه الخلقة، وسوء العشرة والأخلاق الذميمة. {وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ} ورضا ربهم أكبر مما هم فيه من النعيم {وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ} أي بأحوال الذين اتقوا ثم وصفهم بقوله: { ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ} في الدنيا {رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا} بك وبرسولك {فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي استرها وتجاوز عنا {وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ} أي ادفع عنا ذلك {ٱلصَّٰبِرِينَ} على أداء فرائض الله واجتناب معاصيه وعلى المرازي {وَٱلصَّٰدِقِينَ} في أيمانهم وأقوالهم ونياتهم. {وَ ٱلْقَٰنِتِينَ} أي المواظبين على العبادات.

<ص: 91>
{وَ ٱلْمُنفِقِينَ} أموالهم في سبيل الله {وَ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلأَسْحَارِ} أي في أواخر الليل بأيّ صيغة كانت. وقيل: أي المصلين التطوع فيها، وأعظم الطاعات قدراً أمران:

أحدهما: الخدمة بالمال وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «الشفقة على خلق الله» والإشارة بقوله تعالى هنا: {وَ ٱلْمُنْفِقِينَ}.

وثانيهما: الخدمة بالنفس وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «التعظيم لأمر الله». والإشارة بقوله تعالى هنا: {وَ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلأَسْحَارِ}. {شَهِدَ ٱللَّهُ} أي بيَّن لخلقه بالدلائل السمعية والآيات العقلية {أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ} أي لا مستحقاً للعبودية موجود {إِلاَّ هُوَ وَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ} وهم الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة لأن الشهادة إنما تكون مقبولة إذا كان الإخبار مقروناً بالعلم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد» وهذا يدل على أن الدرجة العالية والمرتبة الشريفة ليست إلا لعلماء الأصول. فشهادة الله تعالى على توحيده. هو أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده وشهادة الملائكة وأولي العلم هي إقرارهم بتوحيده تعالى. {قَآئِمَاً بِٱلْقِسْطِ} أي مقيماً للعدل في جميع أموره، وهذا بيان لكماله تعالى في أفعاله بعد بيان كماله في ذاته. {لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} فالعزة في الملك تلائم الوحدانية. والحكمة في الصنع تلائم القيام بالقسط.

قال الكلبي قدم حبران من أحبار الشام على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم». قالا له: وأنت أحمد؟ قال: «أنا محمد وأحمد». قالا: فإنا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك. فقال لهما: «سلا». قالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأسلم الرجلان. وفي المدارك: من قرأها عند منامه وقال بعدها: أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي عنده وديعة، يقول الله يوم القيامة: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة. {إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلَٰمُ} فلا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذي هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة التي عليها الرسل عليهم السلام. نزلت هذه الآية لما ادّعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية فرد الله عليهم ذلك وقال: {إِنَّ الدّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلَٰمُ}.

وقرأ الكسائي بفتح همزة «أن» وهو إما بدل من أنه بدل كان من كل إن فسر الإسلام بالتوحيد نفسه أي بالإيمان بكونه تعالى واحداً. وبدل كل من بعض إن فسر الإسلام بالشريعة، فإنها تشتمل على التوحيد والعدل ونحوهما. أو معطوف على أنه بحذف حرف العطف، أو مبني على أن شهد واقع على أن الدين إما بإجراء أنه على التعليل، والتقدير شهد الله لأجل أنه لا إله إلا هو: {إِنَّ الدّينَ} الآية. أو بإجرائه على قراءة ابن عباس وهو بكسره على جعل جملة «أنه» اعتراضاً وعلى أن الدين من باب تقديم وتأخير، والتقدير شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، وشهد بذلك الملائكة والنبيون والمؤمنون، أو بإجراء «شهد» مجرى قال، مع جعل «إن الدين» معمولاً للحكيم، بإسقاط الجار، أي الحكيم بإن الدين. أما جعله بدل اشتمال من أنه فممتنع بذلك التفسير لأنه صار البدل أشمل من المبدل منه، ولأن شرط بدل الاشتمال أن يكون المخاطب منتظراً للبدل عند سماع المبدل منه وهنا ليس كذلك. ولا سيما أن هنا فصلاً بين البدل والمبدل منه بأجنبي {وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} أي أعطوا التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى في دين الإسلام وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا: نحن أحق بالنبوة من قريش لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب. {إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ} أي الدلائل التي لو نظروا فيها لحصل لهم العلم {بَغْيًا بَيْنَهُمْ} أي لأجل الحسد الكائن بينهم وطلب الرياسة لا لشبهة وخفاء في الأمر {وَمَن يَكْفُرْ

<ص: 92>
بِآيَٰتِ ٱللَّهِ} الناطقة بأن الدين عند الله هو الإسلام بأن لم يعمل بمقتضاها {فَإِنَّ ٱللَّهِ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ} أي فإن الله يجازيه على كفره عن قريب، فإنه يأتي حسابه عن قريب.{فَإِنْ حَآجُّوكَ} أي خاصمك اليهود والنصارى في أن الدين عند الله الإسلام بعد قيام الحجة عليهم {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ} أي أخلصت نفسي أو عملي {للَّهِ} لا أشرك به في ذلك غيره {وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ} عطف على التاء في أسلمت أي وأسلم من اتبعني أو مفعول معه {وَقُلْ لَّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} أي اليهود والنصارى {وَٱلأُمِّيِّينَ} أي الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب: {ءَأَسْلَمْتُمْ} أي فهل أسلمتم بعد أن أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام أم أنتم على الكفر؟

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا. فقال صلى الله عليه وسلم: «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟». فقالوا: معاذ الله. وقال صلى الله عليه وسلم للنصارى: «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله؟». فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً. {فَإِنْ أَسْلَمُواْ} كما أسلمتم {فَقَدِ ٱهْتَدَواْ} للفوز والنجاة في الآخرة {وَّإِن تَوَلَّوْاْ} عن الإسلام والاتباع لدينك لم يضروك شيئاً {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ} أي إبلاغ الأدلة وإظهار الحجة فإذا بلّغت ما جاءَك عن الله فقد أديت ما عليك وليس عليك قبولهم {وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ} أي عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن فيجازي كلاً منهم بعمله {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ} أي بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم {وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} أي بلا جرم {وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي فأعلمهم بعذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

روي عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال: قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر» ثم قرأ هذه الآية ثم قال: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم».

قال الحسن: هذه الآية تدل على أن القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الخوف تلى منزلته في العظم منزلة الأنبياء.

وروي أن رجلاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيّ الجهاد أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» {أُولَئِكَ} المتصفون بالصفات القبيحة {ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ} أي بطلت محاسن أعمالهم في الدارين أما بطلانها في الدنيا فبإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن وبما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ المال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم إلى غير ذلك من الذل الظاهر فيهم. وأما بطلانها في الآخرة فبإزالة الثواب إلى العقاب. {وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ} من عذاب الله في إحدى الدارين {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ} أي حظاً من علم التوراة وهم العلماء منهم النعمان بن عمرو والحرث بن زيد. كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس. {يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ} أي التوراة {لِيَحْكُمَ} أي كتاب الله {بَيْنَهُمْ}. وقرىء «ليحكم» على البناء للمفعول

<ص: 93>

{ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ} أي يعرض طائفة منهم بنو قريظة والنضير من أهل خيبر عن الحكم {وَهُم مُّعْرِضُونَ} أي مكذبون بذلك.

روي عن ابن عباس أن رجلاً وامرأة من اليهود زنيا في خيبر وكانا ذوي شرف، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم، فرجعوا في أمرهما إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم، فحكم عليهما بالرجم. فقال له النعمان ابن أوفى وعدي بن عمرو: جرت علينا يا محمد ليس عليهما الرجم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بيني وبينكم التوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم بالتوراة؟» قالوا: عبدالله بن صوريا الفدكي فأتوا به وأحضروا التوراة فقال له: «اقرأ» فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسول الله. فرفع كفه عنها، ثم قرأ على رسول الله وعلى اليهود أن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما، وإن كانت حبلى تتربص حتى تضع ما في بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما، فغضبت اليهود لذلك

غضباً شديداً وانصرفوا فأنزل الله تعالى هذه الآية. {ذٰلِكَ} أي التولي والإعراض {بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ} أي لن تصيبنا في الآخرة {إِلاَ أَيَّامًا مَّعْدُودٰتٍ} أي سبعة أيام {وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم} أي في ثيابهم على دينهم اليهودية {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} من قولهم ذلك وما أشبهه {فَكَيْفَ} صنعهم {إِذَا جَمَعْنٰهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي في يوم لا شك في مجيئه {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ} برة وفاجرة {مَّا كَسَبَتْ} أي جزاء ما عملت من ثواب أو عقاب {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} فلا ينقص أحد من ثواب الطاعات ولا يزاد على عقاب السيئات {قُلِ ٱللَّهُمَّ مٰلِكَ ٱلْمُلْكِ}.

روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم. فقال المنافقون منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول واليهود هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم أوَلَم يكفِ محمداً مكة والمدينة حتى يطمع في ملك فارس والروم فنزلت هذه الآية. وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق في عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليخبره، فذهب إليه، فجاء رسول الله وأخذ المعول من سلمان فلما ضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها أي المدينة كأنه مصباح في جوف ليل مظلم فكبَّر، وكبَّر المسلمون، وقال صلى الله عليه وسلم: «أضاء لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب» ثم ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم»، ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي منها قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون من نبيكم يعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف فنزلت هذه الآية.

وروي أنها نزلت في شأن قريش لقولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كسرى ينام على فرش الديباج فإن كنت نبياً فأين ملكك؟ {تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ} أي تعطي الملك في الدنيا {مَن تَشَآءُ} من خلقك {وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ} منهم إما بالموت أو إزالة العقل، أو إزالة القوى والحواس، أو بورود التلف على الأموال أو بسلب الملك {وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ} بالإيمان والحق وبالأموال الكثيرة من الناطق والصامت، وبإلقاء الهيبة في قلوب الخلق. {وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ} بالكفر والباطل {بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ} أي بقدرتك العز والذل

والغنيمة والنصرة {إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ} من ذلك {قَدِيرٌتُولِجُ ٱلَّيْلَ} أي تدخل بعض الليل {فِى ٱلنَّهَارِ} فيكون النهار أطول من الليل {وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ}

<ص: 94>
أي تدخل بعض النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار {وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ} أي تخرج النسمة من النطفة، والدجاجة من البيضة، والسنبلة من الحبة، والطيِّب من الخبيث كالتوبة من الذنب، والمؤمن من الكافر كسيدنا عكرمة من أبي جهل. فالمسلم حي الفؤاد والكافر ميت الفؤاد {وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ} أي تخرج النطفة من الإنسان، والبيضة من الطير، والحب اليابس من النبات الحي، والخبيث من الطيب كالعجب من العبادة، والكافر من المؤمن ككنعان من سيدنا نوح عليه السلام {وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي بلا تكلف ولا ضيق.

قال أبو العباس المقري: ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه: بمعنى التعب: قال تعالى: {وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. وبمعنى العدد: قال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر: 01). وبمعنى المطالبة: قال تعالى: {فَمُنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}ص: 93) {لاَّ يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي لا يوال المؤمنون الكافرين لا استقلالاً ولا اشتراكاً مع المؤمنين وإنما الجائز لهم قصر الموالاة والمحبة على المؤمنين بأن يوالي بعضهم بعضاً فقط.

واعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله. وهذا ممنوع لأن الرضا بالكفر كفر.

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر. وذلك غير ممنوع.

وثالثها: الركون إلى الكفار والمعونة والنصرة إما بسبب القرابة أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه وذلك يخرجه عن الإسلام فهذا هو الذي هدد الله فيه بقوله: {وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ} أي الموالاة مع الكافرين بالاستقلال أو بالاشتراك مع المؤمنين {فَلَيْسَ} أي الموالي {مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ} أي ليس من ولاية الله في شيء

يطلق عليه اسم الولاية {إِلاَ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَـةً} أي لا تتخـذوا الكافرين أولياء ظاهراً، أو باطناً فـي حـال مـن الأحـوال إلا حـال اتقائكم من جهتهم اتقـاء. والمعنـى أن اللـه نهـى المـؤمنين عـن مداهنة الكفار إلا أن يكون الكفار غـالبين، أو يكـون المـؤمن فـي قوم كفار فيداهنهم بلسانه مطمئناً قلبه بالإيمان دفعاً عن نفسـه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مـالاً حراماً، أو غيـر ذلـك مـن المحرمـات ومـن غيـر أن يظهـر الكفـار علـى عـورة المسـلمين. والتقية لاتكون إلا مع خوف القتل مع صحة النية.

روي عن الحسن أنه قال: التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة لأن دفع الضـرر عـن النفـس واجـب بقـدر الإمكـان. قـال الحسن: أخذ مسيلمة الكـذاب رجليـن مـن أصـحاب رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم فقال لأحـدهما: أتشـهد أن محمـداً رسـول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم. فقال: أفتشهد أني رسول اللـه؟ قـال: نعم، فتركه. ودعا الآخـر فقـال: أتشـهد أن محمـداً رسـول اللـه؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أني رسول اللـه؟ فقـال إنـي أصـم ثلاثـاً فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فقـال: «أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له وأما الآخـر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه». {وَيُحَذِّرْكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ} أي ذاته المقدسة في التقية عن دم الحرام، وفرج الحرام، ومال الحـرام، وشـرب الخمـر، وشـهادة الـزور، والشـرك بـالله {وَإِلَـىٰ ٱللَّـهِ ٱلْمَصِـيرُ} أي المرجـع فاحـذروه ولا تتعرضـوا لسـخطه بمخالفـة أحكامه. والمعنى إن الله يحذركم عقابه عنـد مصـيركم إلـى اللـه {قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ} أي ما في قلـوبكم مـن البغـض والعدواة لمحمد صلى الله عليـه وسـلم {أَوْ تُبْـدُوهُ} أي تظهـروه بالشتم له والطعن والحرب {يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ} أي يحفظه الله عليكـم فيجازيكم به {وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} من الخيـر والشـر والسـر والعلانيـة {وَٱللَّـهُ عَلَـىٰ كُـلِّ شَـىْءٍ} مـن أهـل السموات والأرض وثوابهم وعقابهم {قَدِيرٌ} نزلت هذه الآيـة فـي حق المنافقين واليهود {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ

<ص: 95>

خَيْرٍ مُّحْضَرًا} أي مكتوباً في ديوانها {وَمَا عَمِلَـتْ مِـن سُـوءٍ} أي من قبيح تجده مكتوباً فـي ديوانهـا {تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَهَـا وَبَيْنَـهُ أَمَـدَا بَعِيدًا} أي والذي عملتـه نفـس مـن سـوء تتمنـى تباعـداً مـا بيـن النفس وبين السوء مكاناً بعيداً كما بين المشـرق والمغـرب لـو

أن بينها وبينه أجلاً طويلاً من مطلع الشمس إلى مغربها لفرحت بذلك. {وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ} عند المعصية ذكر الله تعالى هذا أولاً: للمنع من موالاة الكافرين. وثانياً: للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر {وَٱللَّهُ رَءُوفُ بِٱلْعِبَادِ} أي المؤمنين، أي كما هو منتقم من الفساق فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى} أي فاتبعوا ديني فإنكم إذا اتبعتم ديني فقد أطعتم الله فالله تعالى يحب كل من أطاعه {يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أي إن اتبعتم شريعتي يرضَ الله عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما سلف من ذنوبكم {وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} لمن يتحبب إليه بطاعته. نزلت هذه الآية في حق اليهود لقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال الضحاك عن ابن عباس: وقف النبيّ صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم، وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال: «يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل». فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله ليقربونا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية. وقيل: إن نصارى نجران قالوا: إنما نعظم المسيح حباً لله، فنزلت هذه الآية. ولما نزلت قال عبد الله بن أبيّ لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى المسيح. وقالت اليهود: يريد محمد أن نتخذه رباً حنَّاناً كما اتخذت النصارى عيسى حنَّاناً فأنزل الله بسبب قولهم قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ} أي في جميع الأوامر والنواهي. أي إنما أوجب الله عليكم متابعتي لا كما تقول النصارى في عيسى بل لكوني رسولاً من عند الله {فَإِن تَوَلَّوْاْ} أي أعرضوا عن طاعتهما {فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي اليهود والمنافقين الذين ألقوا شبهة في الدين. فلما نزلت هذه الآية قالت اليهود: نحن على دين آدم مسلمين فأنزل الله قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ} إسماعيل وإسحاق، والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم. {وَءَالَ عِمْرَٰنَ} موسى وهارون. وقيل: عيسى وأمه. حكاه الكرماني ورجحه ابن عساكر والسهيلي. {عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ} أي على أهل رمان كل واحد منهم بالإسلام وبالخصال الحميدة {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} أي اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض في النسب. {وَٱللَّهُ سَمِيعٌ} لأقوال العباد {عَلِيمٌ} بضمائرهم وأفعالهم وإنما يصطفى من

خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً. ويقال: والله سميع لمقالة اليهود نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران فنحن أبناء الله وأحباؤه وعلى دينه. ولمقالة النصارى المسيح ابن الله عليم بعقوبتهم. واذكر يا محمد {إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ} حنة بنت فاقوذا أم مريم حين شاخت وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً، فتحركت نفسها للولد، فدعت ربها أن يهب لها ولداً، فحملت بمريم ومات عمران، فلما عرفت بالحمل قالت يا{رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ} أن أجعل {لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} أي عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله ومخلصاً للعبادة وخادماً لمن يدرس الكتاب ويعلم في مسجد بيت المقدس {فَتَقَبَّلْ مِنِّي} أي خذ مني ما نذرته على وجه الرضا {إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ} لتضرعي ودعائي وندائي. { ٱلْعَلِيمُ} بما في ضميري وقلبي ونيتي.{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} أي ولدت المنذورة التي في بطنها

<ص: 96>
{قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ} أي ما في بطني {أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}.

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم «وضعت» بضم التاء على حكاية كلامها، وإنما قالت ذلك للاعتذار ولإزالة الشبهة التي في قولها: «إني وضعتها أنثى»، فإنها خافت أن يظن بذلك القول أنها تخبر الله تعالى. وقرأ الباقون بسكون التاء أي إنه تعالى قال: {وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} تعظيماً لولدها وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد. والمعنى والله أعلم بأن الذي ولدته وإن كان أنثى أحسن وأفضل من الذكر، وهي غافلة عن ذلك، فلذلك تحسرت. وقرأ ابن عباس: «والله أعلم بما وضعت» على خطاب الله لها، أي إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات، ثم قال تعالى حكاية عن قولها: {وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلأُنثَىٰ} أي وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله. وهذا الكلام يدل على أن حنة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه. ويحتمل أن هذه الجملة محض كلامه تعالى. والمعنى ليس الذي طلبته كالأنثى التي ولدتها بل هي خير منه وإن لم تصلح للسدانة فإن فيها مزايا أخر لا توجد في الذكر. {وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا} أي هذه البنت {مَرْيَمَ} أرادت حنة بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا فإن

مريم في لغتهم العابدة في لغة العرب. {وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ} أي وأني ألجىء مريم وذريتها إلى رحمتك وعصمتك، وألصق نفسها وأولادها بفضلك ورحمتك من الشيطان اللعين {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ} بأن اختص الله تعالى مريم بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم تقبل أنثى قبلها أو بأن أخذها الله من أمها عقب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة.

روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون وقالت: خذوا هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم الأعظم في العلم والصلاح، فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي. فقالت الأحبار: لا تقل ذلك فإنها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التي ولدتها ولكنا نقترع عليها، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين إلى نهر حار في حلب يقال له: قرمق فألقوا فيها أقلامهم التي كانوا يكتبون التوراة بها على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح، وعلى كل قلم اسم صاحبه، ثم ألقوا أقلامهم ثلاث مرات ففي كل مرة يرتفع قلم زكريا فوق الماء وترسب أقلامهم، فأخذها زكريا {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} أي رباها الله بما يصلحها في جميع أحوالها وغذاها بالسنين والشهور والأيام غذاء حسناً {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} أي جعله الله مربياً لها وضامناً لمصالحها، وقائماً بتدبير أمورها ولما أخذها بنى لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطه لا يرقى إليه إلا بالسلم ولا يصعد إليها غيره، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها. {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا} وهو من ذرية سليمان بن داود { ٱلْمِحْرَابَ} أي الغرفة {وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا} أي فاكهة الشتاء في الصيف مثل القصب، وفاكهة الصيف في الشتاء مثل العنب ولم ترضع ثدياً قط بل يأتيها رزقها من الجنة. {قَالَ يٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} أي من أين لك هذا الرزق الآتي في غير حينه الذي لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة عليك {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ} أتاني به جبريل من الجنة فتكلمت وهي صغيرة في المهد، كما تكلم ولدها عيسى عليه السلام وهو صغير في المهد. {إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي بغير تقديرٍ لكثرة الرزق من غير مسألة في حينهِ وفي غير حينه {هُنَالِكَ} أي في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم وشاهد تلك الكرامات، أو في ذلك الوقت الذي رأى فيه خوارق العادات عندها {دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ} في مناجاته في جوف الليل

{رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَـةً} أي رب أعطني من محض قدرتك من غير وسط معتاد ولداً مباركاً تقياً صالحاً كهبتك لحنة العجوز العاقر مريم {إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ} أي مجيب الدعاء {فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} أي جبريل كما أخرجه ابن جرير عن السدي {وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ} أي في الموضع العالي الشريف في المسجد {أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ} بولد يسمى {بِيَحْيَىٰ}.

قرأ ابن عامر وحمزة «إن» بكسر الهمزة. والباقون بالفتح {مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّـهِ} أي بعيسى ابن مريم. ومعنى كونه كلمة من الله كونه مخلوقاً بلا أب.

قال ابن عباس: إن يحيى كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر، وكان يحيى أول من آمن وصدَّق بأنه كلمة الله، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى بمدة يسيرة {وَسَيِّدًا} أي رئيساً للمؤمنين في العلم والحلم والعبادة والورع. قال ابن عباس: أي حليماً عن الجهل. وقال مجاهد: أي كريماً على الله {وَحَصُورًا} أي مانعاً من النساء للعفة والزهد لا للعجز {وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ} أي من المرسلين {قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ} أي قال زكريا لجبريل: يا سيدي من أين يكون لي ولد وقد أدركني كبر السن {وَ ٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ} أي عقيم لا تلد؟ قال ابن عباس: كان زكريا يوم بشّر بالولد ابن مائة وعشرين سنة وكانت امرأته إيشاع بنت فاقوذ بنت تسعين وثمان {قَالَ} أي جبريل: {كَذَٰلِكَ} أي الأمر كما قلت لك من خلق ولد منكما وأنتما على حالكما من الكبر {ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ} من الأفاعيل الخارقة للعادة {قَالَ} أي زكريا: {رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً} أي علامة في حبل امرأتي. {قَالَ} أي الله تعالى: {ءَايَتُكَ} أي علامتك في حبل امرأتك {أَلاَّ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ} أي أن لا تقدر على تكليمهم من غير خرس {ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ} متواليةً بلياليها {إِلاَّ رَمْزًا} أي إلا تحريكاً بالشفتين والحاجبين والعينين واليدين {وَ ٱذْكُر رَّبَّكَ} باللسان والقلب في مدة الحبسة عن كلام الدنيا مع الخلق شكر الله تعالى على هذه النعمة {كَثِيرًا} أي ذكراً كثيراً على كل حال {وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلإِبْكَـٰرِ} أي صل عشياً وغدو كما كنت تصلي {وَ} اذكر {وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} أي جبريل لمريم مشافهة: {يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَٰكِ} بتفرغك لعبادته وتخصيصك بأنواع اللطف والهداية، والعصمة والكفاية في أمر المعيشة وسماع كلام جبريل شفاها

{وَطَهَّرَكِ} من المعصية ومسيس الرجال ومن الأفعال الذميمة ومن مقالة اليهود وتهمتهم. ويقال: أنجاك من القتل {وَ صْٱلطَفَٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ} بولادة عيسى من غير أب ونطقه حال انفصاله من مريم حتى شهد ببراءتها عن التهمة.

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم، وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة عليهن السلام». {يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِى لِرَبِّكِ} أي دومي على طاعته بأنواع الطاعات شكراً لذلك. ويقال: أطيلي القيام في الصلاة شكراً لربك {وَ سْٱلجُدِى} أي صلي منفردة {وَ رْٱكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ} أي صلي مع أهل الصلاة في بيت المقدس فإن اقتداء النساء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء. قال

<ص: 98>
المفسرون: لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات على مريم شفاهاً قامت مريم في الصلاة ورمت قدماها وسال الدم والقيح من فمها. {ذَٰلِكَ} الذي مضى ذكره من حديث حنة ومريم وزكريا {مِنْ أَنبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ} أي من أخبار الغائب عنك يا محمد {نُوحِيهِ إِلَيْكَ} أي نرسل جبريل بإلقاء الغائب إليك {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ} أي عند الذين تنازعوا في تربية مريم {إِذْ يُلْقُونَ أَقۡلَٰمَهُمْ} التي كانوا يكتبون بها الكتب في جري الماء ليعلموا {أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} أي أيّ أحدهم يربي مريم. وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحق معه {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} أي وما كنت هناك إذ يتقارعون تربية مريم وإذ يختصمون بسببها {إِذْ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰئِكَةُ} أي جبريل: {يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ} أي بولد يكون مخلوقاً بكلمة من الله أي من غير واسطة الأسباب العادية فإن عيسى من كل علوق وإن وجد بكلمة كن لكنه بواسطة أب { سْٱلمُهُ} أي الولد { ٱلۡمَسِيحُ} سمي بالمسيح لأنه يسيح في البلدان ولأنه ما مسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه. {عِيسَى ٱبۡنُ مَرْيَمَ} وإنما نسبه الله تعالى إلى الأم إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته. {وَجِيهًا} أي ذا جاه وشرف {فِي ٱلدُّنْيَا} بالنبوة وبإحياء الموتى وبإبراء الأكمه والأبرص بسبب دعائه {وَٱلۡأٓخِرَةِ} بجعله شفيع أمته وبقبول شفاعته فيهم، وبعلو درجته عند الله تعالى {وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ} إلى الله في جنة عدن وهذا الوصف كالتنبيه على أن عيسى سيرفع إلى

السماء وتصاحبه الملائكة {وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ} أي في حجر أمه وهو ابن أربعين يوماً بقوله: إني عبد الله {وَكَهْلاً} أي بعد ثلاثين سنة أي أن عيسى يكلم الناس مرة واحدة في حجر أمه لإظهار طهارة أمه من الفاحشة، ثم عند الكهولة يتكلم بالنبوة {وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي من المرسلين. {قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ} أي قالت مريم لجبريل: يا سيدي من أين يكون لي ولد {وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ} بالحلال ولا بالحرام لأن المحررة لا تتزوج أبداً كالذكر المحرر {قَالَ} أي جبريل: {كَذَٰلِكَ} أي الأمر كما قلت لك من خلق ولد منك بلا أب {ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا} أي إذا أراد خلق شيء {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن} لا غير {فَيَكُونُ} من غير ريث فنفخ جبريل في جيب درعها فوصل نفسه إلى فرجها فدخل رحمها فحملت منه {وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ}.

قرأ نافع وعاصم «يعلمه» بالياء معطوف على الحال وهي قوله: «وجيهاً» فكأن جبريل قال: وجيهاً ومعلماً أو على يبشرك. والباقون و«نعلمه» بالنون معمول لقول محذوف من كلام الملك تقديره «وجيهاً»، ومقولاً فيه نعلمه أو أن الله يبشرك بعيسى ويقول نعلمه كتب الأنبياء والكتابة أي الخط. {وَ ٱلْحِكْمَةَ} أي العلم المقترن بالعمل وتهذيب الأخلاق {وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنجِيلَ} وخصا بالذكر لفضلهما {وَ} نبعثه {وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىۤ إِسْرَٰءِيلَ أَنِّى} أي كلهم. وقيل: هو معطوف على الأحوال السابقة كأنه قيل: حال كونه وجيهاً ورسولاً. وقرىء ورسول بالجر عطفاً على كلمة والمعتمد عند الجمهور أن عيسى إنما نبىء على رأس الأربعين وأنه عاش في الأرض قبل رفعه مائة وعشرين سنة وهو آخر أنبياء بني إسرائيل كما أن أولهم يوسف بن يعقوب {أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ} بفتح الهمزة مجرور بالياء المقدرة التي للملابسة المتعلقة بمحذوف حال من رسول المقدر لما فيه من معنى النطق والتقدير، فلما جاءهم قال لهم: إني رسول الله

<ص: 99>

فيكم ملتبساً بأني قد جئتكم {بِآيَةٍ} أي بعلامة على صدقي في الرسالة {مِّن رَّبِّكُمْ} قالوا: وما هي؟ قال: هي {أَنِّىۤ أَخْلُقُ} أي أصوّر {لَكُمْ مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ} أي شيئاً مثل صورة الطير {فَأَنفُخُ فِيهِ} أي في فم ذلك المماثل

لهيئة الطير {فَيَكُونُ} أي فيصير {طَيْرًا} حياً يطير بين السماء والأرض {بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي بأمره تعالى. فطلبوه بخلق الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ناباً وأسناناً ويضحك كما يضحك الإنسان، ويطير بغير ريش ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين ساعة بعد المغرب وساعة بعد طلوع الفجر، والأنثى منه لها ثدي وتحيض وتطهر وتلد، فلما صور لهم خفاشاً قالوا: هذا سحر فهل عندك غيره؟ قال: نعم {وَأُبْرِىءُ ٱلأَكْمَهَ} بالدعاء أي وأصحح الذي ولد أعمى أو الممسوح العينين {وٱلأَبْرَصَ} وهو الذي في جلده بياض شديد فلما فعل ذلك قالوا: هذا سحر فهل عندك غيره؟ قال: نعم {وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي بالاسم الأعظم وهو «يا حي يا قيوم» فأحيا أربعة أنفس: أحيا عازراً بعد موته بثلاثة أيام حتى عاش وولد له. وأحيا ابن العجوز وهو ميت محمول على السرير فنزل عن سريره حياً، ورجع إلى أهله وعاش وولد له. وأحيا بنت العاشر أي الذي يأخذ العشور من الناس بعد يوم من موتها فعاشت وولد لها، فقالوا: لعيسى: إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا حقيقة بل أصابهم سكتة فأحي لنا سام بن نوح وهو قد مضى من موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقام على قبره فدعا الله باسمه الأعظم فقام من قبره وقال للقوم: صدقوه فإنه نبي الله ومات في الحال فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا: هذا سحر فهل عندك غيره؟ قال: نعم {وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ} غدوة وعشية {وَمَا تَدَّخِرُونَ} أي ترفعون من غداء لعشاء ومن عشاء لغداء {فِى بُيُوتِكُمْ} مما لم أعاينه {إِنَّ فِي ذٰلِكَ} أي في ما قلت لكم من هذه الخمسة {لأَيَةً} أي لمعجزة قوية دالة على صحة رسالتي دلالة واضحة {لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي مصدقين انتفعتم بها {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ} أي لما قبلي {مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ} وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وسبعون سنة. «ومصدقاً» معطوف على «رسولاً» {وَ} جئتكم {وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} في شريعة موسى عليه السلام من الشحوم والثروب للبقر والغنم، ولحوم الإبل ومما لا صيصية له من السمك والطير، ومن العمل في يوم السبت وهذا لا يقدح

في كونه مصدقاً للتوراة لأن النسخ تخصيص في الأزمان {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} شاهدة على صحة رسالتي. وقرىء بآيات {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} في عدم قبولها {وَأَطِيعُونِ} فيما آمركم به وأنهاكم عنه عن الله تعالى {إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ} وإنما أظهر سيدنا عيسى الخضوع، وأقر بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولوا: إنه إله وابن إله لأن إقراره بالعبودية لله يمنع مما تدعيه جهال النصارى عليه {فَٱعْبُدُوهُ} أي لازموا طاعته التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي، أي لما كان الله تعالى رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه. وقوله تعالى: {وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ} إشارة إلى أن استكمال القوة النظرية بالتوحيد. وقوله: {فَٱعْبُدُوهُ} إشارة إلى أن استكمال القوة العملية بالطاعة {هَـٰذَا} أي الجمع بين التوحيد والعبادة {صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ} أي دين قائم يرضاه الله تعالى وهو الإسلام ونظير قوله صلى الله عليه وسلم: «قل آمنت بالله ثم استقم» لرجل قال: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك {فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ} أي فلما سمع عيسى بأذنه من بني إسرائيل تكرار الكفر وطلبوا قتله لأنهم كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشَّر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم. {قَالَ} لأصفياء أصحابه: {مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ} أي من أنصاري حال التجائي إلى الله؟ ويقال: من أعواني؟ مع الله على أعدائه {قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ}

<ص: 100>
أي القصارون أي الذين يبيضون الثياب {نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ} أي نحن أعوانك مع الله على أعدائه. قيل: كانوا تسعة وعشرين. سمي منهم قطرس ويعقوب ولحيس وإيدارانيس، وقيلس وابن تلما، ومتنا وبوقاس ويعقوب بن حليفا، وبداوسيس، وقياسا، وبودس وكدمابوطا، وسرجس وهو الذي ألقى عليه شبهه. أخرج ذلك ابن جرير عن ابن إسحاق. وقيل: كان الحواريون اثني عشر رجلاً آمنوا بعيسى عليه السلام واتبعوه وكانوا إذا جاعوا قالوا: جعنا يا روح الله فيضرب بيده الأرض فيخرج منها لكل واحد رغيفان. وإذا عطشوا قالوا: عطشنا، فيضرب بيده الأرض فيخرج

منها الماء فيشربون. فقالوا: من أفضل منا؟ قال عليه السلام: أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه. فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة، فسموا حواريين، أي إن اليهود لما طلبوا عيسى عليه السلام للقتل وكان هو في الهرب عنهم قال لأولئك الاثني عشر من الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني؟ فأجابه إلى ذلك بعضهم: {ءَامَنَّا بِٱللَّهِ} فهذا استئناف يجري مجرى العلة لما قبله. والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله لأجل أننا آمنا بالله فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله والذب عن أولياء الله والمحاربة مع أعدائه {وَٱشْهَدْ} يا سيدنا عيسى {بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي مقرون بالعبادة والتوحيد لله. وذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم وإشهاد لله أيضاً على أنفسهم بذلك. فلما أشهدوا عيسى على إيمانهم وإسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى وقالوا: {رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ} من الكتاب أي الإنجيل {وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ} أي دين رسول الله عيسى {فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ} أي اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق.

وقال ابن عباس: فاكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه أو فاكتبنا مع محمد وأمته لأنهم هم المخصومون بأداء الشهادة {وَمَكَرُواْ} أي أراد اليهود قتل عيسى {وَمَكَرَ ٱللَّهُ} أي أراد الله قتل صاحبهم تطيانوس. وقيل: مكرهم بعيسى همهم بقتله، ومكر الله تعالى بهم رفع عيسى إلى السماء. وذلك أن يهودا ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام، وكان جبريل لا يفارقه ساعة، فأمره جبريل أن يدخل بيتاً فيه روزنة، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره فأخذ وصلب. {وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ} أي أقوى المريدين ويقال: أفضل الصانعين.

روي عن ابن عباس أن ملك بني إسرائيل اسمه يهوذا لما قصد قتل عيسى أمره جبريل أن يدخل بيتاً فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم يقال له تطيانوس: ادخل عليه فاقتله. فدخل البيت فلم يرَ عيسى فألقى الله تعالى شبه

عيسى عليه، فخرج يخبرهم أنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فوقع بينهم قتال عظيم {إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} أي مستوفي أجلك المسمى وعاصمك من أن يقتلك الكفار {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} من الأرض إلى محل كرامتي وإلى محل ثوابك {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ} بك أي منجيك منهم {وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ} أي الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله والذين صدقوا بنبوتك وادعوا محبتك كالنصارى {فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بك وهم اليهود بالحجة والسيف، والقهر والسلطان، والاستعلاء والنصرة {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ} فإن ملك اليهود قد ذهب فلم تبقَ لهم قلعة ولا سلطان، ولا شوكة في جميع الأرض بل يكونون مقهورين أين ما كانوا بالذلة والمسكنة، وملك النصارى باقٍ قائم إلى قريب من قيام الساعة فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود. وذكر محمد بن إسحاق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى

<ص: 101>
عليه السلام إلى السماء فشمسوهم وعذبوهم فبلغ ذلك ملك الروم، وكان ملك اليهود من رعيته. ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه فتابعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيَّبه وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم، وكان اسم هذا الملك طباريس وهو قد صار نصرانياً إلا أنه لم يظهر ذلك ثم جاء بعده ملك آخر يقال له ملطيس، وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه السلام بمقدار أربعين سنة ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح وقصد قتله. {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} بالموت والخطاب لعيسى ومن آمن معه ومن كفر به {فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} أي تخاصمون في الدين {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بالله ورسوله {فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي ٱلدُّنْيَا} بالقتل والسبي والجزية

والذلة {وَٱلأٌّخِرَةِ} بالنار {وَمَا لَهُمْ مِّن نَّصِرِينَ} أي مانعين من عذاب الله في الدنيا والآخرة {وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا} بالله والكتاب وبنبوة عيسى وبنبوة محمد {وَعَمِلُواْ ٱلصَّلِحَاتِ} فيما بينهم وبين ربهم {فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} أي فيوفرهم أجورهم وأعمالهم في الجنة {وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّلِمِينَ} أي لا يريد إيصال الخير إلى المشركين. وقرأ حفص عن عاصم «فيوفيهم» بالياء والفاعل راجع إلى الله. والباقون بالنون {ذٰلِكَ} أي خبر عيسى {نَتْلُوهُ عَلَيْكَ} أي ننزل عليك جبريل به {مِنَ الآيَتِ} أي من آيات القرآن أو من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك {وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ} أي الذي ينطق بالحكمة أو المحكم فإن القرآن ممنوع من تطرق الخلل إليه.

وروي أنه حضر وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا وتسبه فقال: «من هو؟» قالوا: عيسى. قال: «وما أقول» قالوا: تقول إنه عبد، قال: «أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول». فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ ومن لا أب له فهوابن الله ثم خرجوا من عنده صلى الله عليه وسلم فجاء جبريل فقال: قل لهم إذا أتوك {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ} أي إن صفة تخلق عيسى في تقدير الله وحكمه بلا أب {كَمَثَلِ ءَادَمَ} أي كصفة قالب آدم {خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ} بلا أب وأم {ثُمَّ قَالَ لَهُ} أي لآدم {كُن فَيَكُونُ} أي نفخ فيه الروح. وكذلك عيسى قال له: كن من غير أب فكان ولداً بلا أب، فإذا كان آدم كذلك ولم يكن ابناً لله فكذلك عيسى فمن لم يقر بأن الله خلق عيسى من غير أب مع إقراره بخلق آدم بغير أب وأم فهو خارج عن طور العقلاء. وأيضاً إذا جاز أن يخلق الله آدم من التراب فجواز خلق الله تعالى عيسى من دم مريم من باب أولى فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب إلى العقل من تولده من التراب اليابس.{ ٱلْحَقُّ} أي الذي أنزل عليك من خبر عيسى أنه لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه هو {مِن رَّبِّكَ} والباطل من النصارى واليهود فالنصارى قالوا: إن مريم ولدت إلهاً رموا مريم بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار {فَلاَ تَكُنْ مِّن ٱلْمُمْتَرِينَ} أي من الشاكين فيما بينت لك

من تخليق عيسى بلا أب، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تحريكاً له لزيادة ثباته على اليقين ولكل سامع لينزع عما يورث الامتراء، ثم ذكر الله تعالى خصومة وفد نجران مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ما بين لهم إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فقالوا: ليس كما تقول: إن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه فقال الله تعالى: {فَمَنْ حَآجَّكَ} أي خاصمك من نصارى نجران {فِيهِ} أي في شأن عيسى {مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ} أي من الدلائل الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله {فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ

<ص: 102>
وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا} أي نخرج بأنفسنا {وأَنفُسَكُمْ} أي اخرجوا بأنفسكم {ثُمَّ نَبْتَهِلْ} أي نجتهد في الدعاء ونخلصه أو نلاعن بيننا وبينكم {فَنَجْعَل لَّعْنَتُ ٱللَّهِ} فيما بيننا {عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ} على الله في حق عيسى وهم من يقولون: إن عيسى ابن الله أو أنه إله.

روي أنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر الدلائل على نصارى نجران، ثم إنهم أصروا على جهلهم فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم» فقالوا يا أبا القاسم: حتى نرجع فننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً فلما رجعوا إلى قومهم قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم : يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى إن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا الإقامة عفى دينكم والإصرار على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرج من بيته إلى المسجد، وعليه مرط من شعر أسود، محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها رضي الله عنهم أجمعين وهو يقول لهؤلاء الأربعة: «إذا دعوت فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً ولو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا، ثم قالوا يا أبا القاسم:

رأينا أنا لا نباهلك وأن نثبت على ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين». فأبوا، فقال: «إني أناجزكم القتال» فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة. ألفاً في صفر وألفاً في رجب. وثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح فصالحهم رسول الله على ذلك. {إِنَّ هَٰذَا} الذي ذكرت من الدلائل التي دلت على أن عيسى لم يكن الله ولا ولده، ولا شريكه، ومن الدعاء إلى المباهلة مع وفد نجران {لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ} دون أكاذيب النصارى {وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ ٱللَّهُ} بلا شريك ولا ولد ولا زوجة {وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ} أي الغالب الذي لا يمنع القادر على جميع المقدورات {ٱلْحَكِيمُ} أي العالم بجميع المعلومات وبجميع عواقب الأمور فذكر العزيز الحكيم ههنا إشارة إلى الجواب عن النصارى في الشبهتين لعيسى القدرة على الإحياء ونحوه وأخبار الغيوب {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ} أي فإن أبوا عن قبول الحق وأعرضوا عما وصفت من أن الله هو الواحد، وأنه يجب أن يكون عالماً قادراً على جميع المقدورات عالماً بالنهايات، محيطاً بالمعلومات مع اعترافهم بأن عيسى لم يكن كذلك ومع قولهم: إن اليهود قتلوه فاعلم أن آباءهم وأعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوِّض أمرهم إلى الله، فإن الله عليم بفساد المفسدين، مطَّلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة، قادر على مجازاتهم {قُلْ يٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ} نزلت هذه الآية في شأن نصارى نجران كما قاله ابن عباس: وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر على نصارى نجران أنواع الدلائل أولاً، ثم دعاهم إلى المباهلة ثانياً، فخافوا وقبلوا الصغار بأداء الجزية، وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمانهم فعدل إلى رعاية الإنصاف وترك المجادلة. فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم إنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال {وَقُلْ مَّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ} أي يا معشر النصارى {تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ} أي هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا البعض لا ميل فيه لأحد على صاحبه.

وقيل: نزلت في حق يهود المدينة. وقيل: نزلت في شأن الفريقين وذلك لما قدم وفد نجران المدينة والتقوا مع اليهود، واختصموا في دين إبراهيم فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وأنهم على دينه، وأولى الناس به.

<ص: 103>

اليهود: بل كان يهودياً ونحن على دينه وأولى الناس به. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه. بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام» فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى. وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير. فأنزل الله تعالى: {قُلْ يٰأَهْلَ أَهْلِ لْكِتٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي يا معشر اليهود والنصارى: هلموا إلى قصة عادلة مستقيمة بيننا وبينكم لا يختلف فيها الرسل والكتب فإذا آمنا نحن وأنتم بها كنا على السواء والاستقامة، ثم فسر الكلمة بقوله: {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللَّهَ} أي أن نوحده بالعبادة ونمحضه بها {وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً} أي ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نعتقده أهلاً لأن يعبد {وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ} أي لا يطيع أحد منا أحداً من الرؤساء في معصية الله تعالى وفيما أحدثوا من التحريم والتحليل، ولا نقول عزير بن الله ولا المسيح بن الله لأنهما بشران مثلنا {فَإِن تَوَلَّوْاْ} أي أبوا إلا الإصرار على الشرك {فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي فأظهر أنت والمؤمنون بأنكم على هذا الدين وقولوا: اعترفوا بأنا مقرون بالتوحيد والعبادة لله تعالى دونكم فقد لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك، وبأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام. {يٰأَهْلَ لْكِتٰبِ} أي يا معشر اليهود والنصارى {لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرٰهِيمَ} أي لم تخاصمون في دين إبراهيم ولم تدَّعون أن إبراهيم عليه السلام كان منكم {وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ} على موسى {وَٱلإِنْجِيلُ} على عيسى {إِلاَّ مِن بَعْدِهِ} أي من بعد إبراهيم بزمن طويل، إذ كان

بين إبراهيم وموسى ألف سنة. وبين موسى وعيسى ألفا سنة. وبعد نزول التوراة حدثت اليهودية، وبعد نزول الإنجيل حدثت النصرانية {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي أتدعون أن إبراهيم منكم فلا تعقلون بطلان ادعائكم {هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلاءِ حَٰجَجْتُمْ} أي ها أنتم يا هؤلاء اليهود والنصارى خاصمتم {فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ} في كتابكم أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وأن محمداً نبي مرسل وهو موجود في كتابكم بنعته فأنكرتم ذلك {فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} في كتابكم لأنه ليس لدين إبراهيم ذكر في كتابكم أصلاً، ولم تدَّعون أن شريعة إبراهيم مخالفة لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم {وَٱللَّهُ يَعْلَمُ} كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفة والموافقة {وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} كيفية تلك الأحوال ثم بيَّن الله تعالى ذلك مفصلاً وكذبهم فيما ادعوه من موافقة إبراهيم لهما فقال: {مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا} أي ليس إبراهيم على دين اليهود ولا على دين النصارى {وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا} أي مائلاً عن الأديان الباطلة كلها {مُّسْلِمًا} أي على ملة التوحيد لا على ملة الإسلام الحادثة {وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} وهذا تعريض بكون اليهود والنصارى مشركين بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله، ورد على المشركين في ادعائهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام: {إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ} أي إن أقرب الناس إلى دين إبراهيم وأخصهم به {لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ} في زمانه {وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ} محمد {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بمحمد فهم الذين يليق أن يقولوا نحن على دينه لأن غالب شرع محمد موافق لشرع إبرهيم أي إن أحق الناس بدين إبراهيم فريقان: أحدهما: من

اتبعه من أمته.

وثانيهما: النبي وسائر المؤمنين من أصحابه صلى الله عليه وسلم {وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي ناصرهم وحافظهم ومكرمهم، ثم ذكر دعوة كعب بن الأشرف وأصحابه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ وحذيفة وعمار بعد يوم أحد إلى دينهم اليهودية عن دين الإسلام فقال: {وَدَّت طَّآئِفَةٌ} أي تمنت {مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ

يُضِلُّونَكُمْ} أي أن يضلوكم عن دينكم الإسلام {وَمَا يُضِلُّونَ} عن دين الله {إِلاَ أَنفُسَهُمْ} لأن المؤمنين لا يقبلون قولهم فيحصل عليهم الإثم بتمنيهم إضلال المؤمنين وهم صاروا خائبين حيث اعتقدوا شيئاً ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوَّروه {وَمَا يَشْعُرُونَ} إن هذا نصرهم لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمنى إضلال المسلمين.{يٰأَهْلَ ٱلْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايٰتِ ٱللَّهِ} وهي الواردة في التوراة والإنجيل من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والإخبار بأن الدين هو الإسلام وبأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً {وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} صحتها إذا خلا بعضهم من بعض، وتنكرون اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على نبوة محمد عند حضور عوامكم وعند حضور المسلمين. أو المعنى لم تكفرون بالقرآن فإنكم تنكرون عند العوام كونه معجزاً وأنتم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزاً {يٰأَهْلَ ٱلْكِتٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ} أي لم تخلطون المنزل من التوراة بالمحرف من عندكم كما نقل عن الحسن وابن زين أو لم تشككون الناس بإظهار الإسلام بالتواضع أول النهار، ثم بالرجوع عنه في آخر النهار كما نقل عن ابن عباس وقتادة.

وقرىء «تلبسون» بتشديد الباء. وقرأ يحيى بن وثاب «يلبسون» بفتح الياء أي تكتسون الحق مع الباطل {وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ} أي الآيات الموجودة في التوراة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} أنكم إنما تفعلون ذلك عناداً وحسداً وتعلمون أن عقاب من يفعل مثل هذه الأفعال عظيم أي أنتم أرباب العلم والمعرفة. {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰبِ} هم اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر لسفلتهم منهم عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحرث وكعب وأصحابه من الرؤساء {ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىۤ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بمحمد أي آمنوا ببعض القرآن أي بالقبلة التي صلى إليها محمد وأصحابه {وَجْهَ ٱلنَّهَارِ} أي أوله. وهو صلاة الفجر. {وَ ٱكْفُرُوۤاْ} بالقبلة الأخرى التي وصلوا إليها {ءَاخِرَهُ} صلاة الظهر فإنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى بيت المقدس بعد أن قدم المدينة، ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم. فلما حوَّله الله تعالى إلى الكعبة عند صلاة الظهر شق ذلك

على اليهود فقال كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف لأصحابهما: آمنوا بالذي أنزل على محمد في شأن القبلة وصلوا إليها أول النهار، ثم ارجعوا إلى قبلتكم وصلوا إلى الصخرة آخر النهار {يَرْجِعُونَ} عن دينه وقبلته {وَلاَ تُؤْمِنُوۤاْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} أي ولا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم فإن مقصود كل واحد حفظ أتباعه على متابعته أي غرضهم بالإتيان بذلك التلبيس إبقاء أتباعهم على دينهم. أو المعنى لا تصدقوا بالنبوة إلا من وافق دينكم اليهودية وقبلتكم بيت المقدس فأما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقوه {قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ} أي إن الدين دين الله وهو الإسلام، والقبلة قبلة الله وهي الكعبة. {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} وهذا من جملة كلام الله تعالى فلا تنكروا يا معشر اليهود أن يعطى أحد سواكم من الدين والقبلة مثل ما أعطيتموه أو أن يحاجج المسلمون إياكم

<ص: 105>
بذلك عند ربكم إن لم تقبلوا ذلك منهم.

وقرأ ابن كثير أن «يؤتى» بهمزتين مع قصر الأولى، وتسهيل الثانية على الاستفهام الذي للإنكار والتوبيخ. والمعنى أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون اتباعه. وهذا الوجه مروي عن مجاهد وعيسى بن عمر، وغاية ما في هذا الباب أنه يفتقر في هذا التأويل إلى إضمار مادة الإنكار لأن عليه دليلاً وهو قوله تعالى: {إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ} فإنه لما كان الهدى هدى الله كان له تعالى أن يؤتيه من يشاء من عباده ومتى كان الأمر كذلك لزم ترك الإنكار {قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ} بالرسالة والنبوة والإسلام وقبلة إبراهيم {بِيَدِ ٱللَّهِ} فإنه مالك له {يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ} أي يعطيه محمداً وأصحابه والله تعالى حكى عن اليهود أمرين:

أحدهما: أنهم آمنوا وجه النهار وكفروا آخره ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام، فأجاب الله عن ذلك بقوله: {قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ} أي أن مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون لهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر.

وثانيهما: أنهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكم والنبوة فأجاب الله عن ذلك بقوله: {قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء} {وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ} أي كامل القدرة فيقدر أن يتفضل على أي عبد شاء بأي تفضل شاء {عَلِيمٌ} أي كامل العلم فلا يكون شيء من أفعاله إلا على وجه الحكمة والصواب {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ} التي بلغت في الشرف وعلو المرتبة إلى أن تكون أعلى وأجل من أن تقاس من النبوة والرسالة والدين {مَن يَشَآءُ} محمداً وأصحابه {وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} فلا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده {وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ} أي اليهود {مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} بغير تعب كعبد الله بن سلام وأصحابه {وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} بل يستحله {إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا} أي مطالباً مخاصماً ككعب بن الأشرف وأصحابه.

قال ابن عباس: أودع رجل قرشي عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداه إليه. وأودع قرشي آخر فنحاص بن عازوراء فخانه، فنزلت هذه الآية.

[تنبيه]: معنى الباء إلصاق الأمانة كما، أن معنى على في قولك أمنته على كذا، استعلاء الأمانة، فمن ائتمن على شيء فقد صار ذلك الشيء في معنى الملتصق به، وصار المودع كالمستعلي على تلك الأمانة. {ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} أي ذلك الاستحلال والخيانة مستحق بسبب أنهم يقولون: ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل. أي قدرة على المطالبة والإلزام فإنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا. أو المعنى ليس علينا في أخذ أموال العرب سبيل أي إثم فإنهم قالوا: أموال العرب حلال لنا لأنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم في كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم. {وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي إنهم قالوا: إن جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه أفحش {بَلَىٰ} على اليهود في العرب سبيل وهذا رد على اليهود ولكن {مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ} فيما

بينه وبين الله أو بينه وبين الناس {وَٱتَّقَى} عن نقض العهد بالخيانة وترك الأمانة {فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ}.

وهذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد وذلك لأن الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق فهو شفقة على خلق الله وذلك أمر الله. فالوفاء بالعهد تعظيم لأمر الوفاء كما يكون في حق الغير يكون في حق النفس، فالوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات. {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ} أي من جميع ما أمر الله به

<ص: 106>

ومما يلزم الشخص نفسه {وَأَيْمَٰنِهِمْ} وهي الحلف التي يؤكد بها الإنسان خبره من وعد أو وعيد أو إنكار أو إثبات {ثَمَنًا قَلِيلًا} من الدنيا {أُوْلَٰئِكَ} الموصوفون بتلك الصفات القبيحة {لاَ خَلَٰقَ} أي لا نصيب {لَهُمْ فِى} خير {ٱلآخِرَةِ} ونعيمها {وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ} أي يشتد غضب الله عليهم {وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ} بالإحسان والرحمة {يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ} أي لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

نزلت هذه الآية في حق عبدان بن الأشوع، وامرىء القيس اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض فتوجهت اليمين على امرىء القيس فقال: أنظرني إلى الغد. ثم جاء في الغد وأقر له بالأرض. وقيل: نزلت في شأن الأشعث بن قيس كان بينه وبين رجل خصومة في أرض وبئر اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للرجل: «أقم بيّنتك». فقال: ليس لي بيّنة، فقال للأشعث: «فعليك باليمين». فهمَّ الأشعث باليمين. فأنزل الله تعالى هذه الآية فنكل الأشعث عن اليمين ورد الأرض إلى الخصم، واعترف بالحق وهذا قول ابن جريج. وقيل: نزلت في شأن كعب بن الأشرف ويحيى بن أخطب، وأبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق بدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة وأخذوا الرشوة على ذلك وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا كما قاله عكرمة أو كتبوا بأيديهم كتاباً في ادعائهم أنه ليس علينا في الأميين

سبيل وحلفوا أنه من عند الله كما قاله الحسن وهذه الآية دلت على أنها نزلت في أقوام حلفوا بالأيمان الكاذبة فتحمل على جميع الروايات. {وَإِنَّ مِنْهُمْ} أي من اليهود {لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ} أي طائفة يحرِّفون اللفظة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى. وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب، وأبو ياسر وشعبة بن عمير {لِتَحْسَبُوهُ}.

وقرىء شاذة بالياء {مِنَ ٱلْكِتَٰبِ} أي لكي يظن السفلة أو المسلمون أن المحرف من التوراة {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ} أي والحال أن المحرف ليس من التوراة في نفس الأمر وفي اعتقادهم {وَيَقُولُونَ هُوَ} أي المحرف {مِنْ عِندِ اللَّهِ} أي موجود في كتب سائر الأنبياء مثل شعياء وأرخياء وحيفوف {وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ} فالأغمار الجاهلون بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنه من التوراة، والأذكياء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى عليهم السلام. وعلم من هذا التفسير المغايرة بين اللفظين فإنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب وتارة بالسنة، وتارة بالإجماع، وتارة بالقياس والكل من عند الله {وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي يتعمدون ذلك الكذب مع العلم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيَّروا التوراة، وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذي عندهم. {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَ ٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي ما أمكن وما صح لأحد من الأنبياء كعيسى ومحمد أن يعطيه الله الكتاب أي التوراة أو القرآن والفهم لذلك الكتاب والنبوة، ثم يقول ذلك البشر المشرف بالصفات الثلاثة للناس كونوا عباداً كائنين لي متجاوزين الله إشراكاً أو إفراداً. قال مقاتل والضحاك: نزلت هذه الآية في شأن نصارى نجران حيث يقولون: إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه رباً.

وقال ابن عباس: لما قالت اليهود: عزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله نزلت هذه الآية. وقال أيضاً في مقالتهم : نحن على دين إبراهيم وأمرنا هو بهذا الدين. وقال ابن عباس وعطاء: إن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريد أن

<ص: 107>
نعبدك ونتّخذك رباً؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني الله ولا بذلك أمرني». فنزلت هذه الآية. وقيل: قال رجل يا رسول الله: نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله». فنزلت هذه الآية {وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّينَ} أي ولكن يقول ذلك البشر الذي رفعه الله إلى أعلا المراتب كونوا علماء عاملين {بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ}.

قرأ عبد الله ابن كثير وأبو عمرو ونافع بفتح التاء وسكون العين. والباقون بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة. أي تعلمون الناس من الكتاب {وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} أي وبسبب كونكم تقرؤون من الكتاب {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا}.

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر «يأمركم» بفتح الراء، والفاعل ضمير يعود على البشر و«لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي، أي ما كان لبشر أن يجعله الله نبياً، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه أو باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً. وقرأ الباقون برفع الراء على سبيل الاستئناف، كما يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود أنه قرأ: «ولن يأمركم» والفاعل حينئذ ضمير يعود على «الله» كما قاله الزجاج أو إلى محمد كما قاله ابن جريج أو إلى عيسى، أو إلى كل نبي من الأنبياء كما قيل بكل أي ولا يأمركم يا معشر قريش واليهود والنصارى بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً كما اتخذت الصابئة وقريش: الملائكة، واليهود: عزيراً والنصارى: المسيح {أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ} أي كيف أمركم ذلك البشر والله

تعالى بالكفر {بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} وهذا استفهام إنكاري وهو خطاب للمؤمنين على طريق التعجيب من حال غيرهم. ويقال: بعد إذ أمركم بالإسلام {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ} أي أعطيناكم.

قرأ نافع «آتيناكم» بالنون على التفخيم {ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ}. وقرأ الجمهور «لما» بفتح اللام. وقرأ حمزة بكسر اللام. وقرأ سعيد ابن جبير «لما» مشددة. أما القراءة بالفتح ف«لما» وجهان «ما» هو اسم موصول مرفوع بالابتداء وخبره قوله: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ} وإما هو متضمن لمعنى الشرط ف«اللام» في قوله: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ} هي المتلقية للقسم أما اللام في «لما» هي لام تحذف تارة وتذكر أخرى ولا يتفاوت المعنى وهذا اختيار سيبويه والمازني والزجاج. وقال أبو السعود واللام في «لما» موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف، و«ما» تحتمل الشرطية. و«لتؤمنن» ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية، وأما القراءة بكسر اللام فلأنها للتعليل، وإما مصدرية أو موصول. وأما قراءة «لما» بالتشديد فإما هي بمعنى حين أو لمن أجل ما، على أن أصله لمن ما، وأما معنى «وإذْ أخَذَ الله» فقال ابن جرير الطبري: واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيين.

وقال الزجاج: واذكر يا محمد في القرآن إذ أخذ الله ميثاق النبيين. والمقصود بهذه الآية أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده أن يصدق بعضهم بعضاً وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إن أدركه، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاؤس.

وقيل: إنما أخذ الله الميثاق من النبيين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبين بعضهم لبعض صفة محمد وفضله، وهو قول علي وابن عباس وقتادة والسدي. وقال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد صلى الله عليه

وسلم وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه. وقيل: إن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق على أممهم بأنه إذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم يؤمنون به

<ص: 108>

وينصرونه وهذا قول كثير من المفسرين والمراد من قوله: {ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ} هو محمد صلى الله عليه وسلم. والمراد بكونه مصدقاً لما معهم هو أن كيفية أحواله مذكورة في التوراة والإنجيل، فلما ظهر على أحوال مطابقة لما كان مذكوراً في تلك الكتب كان نفس مجيئه تصديقاً لما كان معهم. {قَالَ} الله تعالى لهم: {ءَأَقْرَرْتُمْ} بالإيمان به والنصرة له {وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِى} أي قبلتم على ما قلت عهدي {أَقْرَرْنَا} بذلك. {قَالَ} الله تعالى: {فَ ٱشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ} أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً من الشاهدين {فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ} أي من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول بنصرته بعدما تقدم من هذه الدلائل كان من الخارجين عن الإيمان {أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلاْرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} والوجه في هذه الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكوراً في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد، فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر، فأعلمهم الله أنهم متى كانوا كذلك كانوا طالبين ديناً غير دين الله، ومعبوداً سوى الله تعالى، ثم بيَّن أن الإعراض عن حكم الله تعالى مما لا يليق بالعقلاء فقال: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلاْرْضَ} أي لجلال الله تعالى لا لغيره انقاد في طرفي وجوده وعدمه، لأن كل ما سوى الله ممكن لذاته وكل ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاده ولا يعدم إلا بإعدامه سواء كان عقلاً أو نفساً، أو روحاً أو جسماً أو جوهراً، أو عرضاً، أو فاعلاً أو فعلاً. ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى: {وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَ لاْرْضَ}(الرعد:

51) فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين وينقادون له كرهاً فيما يخالف طباعهم من الفقر والمرض والموت وما أشبه ذلك. أما الكافرون فهم منقادون لله تعالى كرهاً على كل حال لأنهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين ويخضعون له تعالى في غير ذلك كرهاً لأنه لا يمكنهم دفع قضائه تعالى وقدره. وأيضاً كل الخلق منقادون لإلهيته تعالى طوعاً بدليل قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ} (لقمان: 52) ومنقادون لتكاليفه تعالى وإيجاده للآلام كرهاً، ثم الهمزة للاستفهام التوبيخي وموضعها لفظة يبغون، والتقدير: أيبغون غير دين الله لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال الحوادث. وقرأ حفص عن عاصم «يبغون» و«يرجعون» بالياء على الغيبة فيهما. أي إنما ذكر الله تعالى حكاية أخذ الميثاق حتى يبين أن اليهود والنصارى يلزمهم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فلما أصروا على كفرهم قال تعالى على جهة الاستنكار: {أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ}. وقرأ أبو عمرو «تبغون» بالتاء خطاباً لليهود وغيرهم من الكفار، و«يرجعون» بالياء ليرجع إلى جميع المكلفين المذكورين في قوله تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلأَرْضَ}.

وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب فيهما لأن ما قبلهما خطاب كقوله تعالى: {وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ} وأيضاً فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر: أفغير دين الله تبغون مع علمكم بأنه أسلم له تعالى من في السموات والأرض وأن مرجعكم إليه. وهو كقوله تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءايٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} (آل عمران: 101). ولما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدقاً لما معهم بين الله تعالى من صفة محمد صلى الله عليه وسلم كونه مصدقاً لما معهم فقال: {قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا} وهو القرآن {وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ} من الصحف. والمراد بالأسباط أحفاد يعقوب وأبناؤه الاثنا عشر {وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ} من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما {وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ} من

الكتب والمعجزات {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} أي نقرّ بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله وفي الانقياد لتكاليف الله ولا نكفر بأحد منهم كما فعل اليهود والنصارى {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} أي مستسلمون لأمر الله بالرضا وترك المخالفة لا لسمعة ورياء وطلب مال وتلك صفة المؤمنين بالله والكافرون يوصفون بالمحاربة لله، ولما قال تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} بين أن الدين ليس إلا الإسلام فقال: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَٰمِ} أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله {دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ} بحرمان الثواب وحصول العقاب ولحوق التأسف على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح، وعلى ما تحمله من التعب في الدنيا في تقرير الدين الباطل. ولفظ «ديناً» إما مفعول و«غير الإسلام» حال منه مقدم عليه أو تمييز أو بدل من غير {كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ} أي كيف يخلق الله فيهم المعرفة والهداية وهم قصدوا تحصيل الكفر {بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ} بالقلب {وَشَهِدُواْ} أي والحال هم قد أقروا باللسان {أَنَّ ٱلرَّسُولَ} محمداً صلى الله عليه وسلم {حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ} أي الحجج الظاهرة على صدق النبي {وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي الكافرين الأصليين والمرتدين. وهذه الآية نزلت في شأن الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، وهم اثنا عشر رجلاً، منهم أبو عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت، ووضوح بن الأسلت، وطعيمة بن بيرق. كما أخرجه عكرمة وابن عساكر. {أُوْلَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَلَٰئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ} فإن لعنة الله هي الإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة، واللعنة من الملائكة والناس هي بالقول وكل ذلك مستحق لهم بسبب كفرهم، فصلح أن يكون جزاء لذلك وجميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ولكنه يعتقد في ذلك أنه ليس بمبطل ولا بكافر فإذا لعن الكافر وهو في علم الله كافر فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك. {خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي اللعنة فلا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم من أن يلعنهم لاعن من هؤلاء {لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} أي لا يؤخر عذابهم من وقت إلى وقت {إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُواْ}

من الكفر {مِن بَعْدِ ذٰلِكَ} أي الارتداد {وَأَصْلَحُواْ} باطنهم وظاهرهم بالعمل الصالح {فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ} لقبائحهم في الدنيا بالستر {رَّحِيمٌ} في الآخرة بالعفو. نزلت هذه الآية في شأن الحرث بن سويد وهو رجل من الأنصار فإنه لما لحق مكة مرتداً ندم على ردته فأرسل إلى قومه بالمدينة أن يسألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة؟ ففعلوا فأنزل الله هذه الآية فبعث إليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه فأقبل إلى المدينة، وتاب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل الرسول توبته وحسن إسلامه {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بالله {بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ} بالله {ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا} أي ثم أصروا على الكفر {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} ما أقاموا على ذلك. قال القاضي والقفال وابن الأنباري: لما قدم الله تعالى ذكر من كفر بعد الإيمان وبيَّن أنه أهل اللعنة إلا أن يتوب. ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإنها تصير غير مقبولة، وكأنها لم تكن. والتقدير إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم {وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ} على سبيل الكمال عن الهدى {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بالله والرسول {وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ} بالله والرسول {فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلأَرْضِ} أي مقدار ما يملأ الأرض مشرقها ومغربها {ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ}.

قال الزجاج: إن «الواو» للعطف. والتقدير لو تقرب إلى الله في الدنيا بملء الأرض ذهباً لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الأرض ذهباً لم يقبل منه. أو المراد ب«الواو» التعميم في الأحوال كأنه قيل: لن يقبل من الكافر في جميع الأحوال في الآخرة ولو في حال افتدائه نفسه في الآخرة {أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ

<ص: 110>

عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّٰصِرِينَ} في دفع العذاب عنهم أو في تخفيفه {لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ} أي الثواب والجنة أولن تبلغوا إلى التوكل والتقوى {حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} من أموالكم وعملكم وجاهكم في معاونة الناس وبدنكم في طاعة الله ومهجتكم في سبيله {وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ} تريدون به وجه الله أو مدحة الناس {فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} هذا تعليل

للجواب المحذوف أي فيجازيكم بحسبه جيداً كان أو رديئاً فإنه تعالى عالم بكل شيء تنفقونه من ذاته وصفاته علماً كاملاً بحيث لا يخفى عليه شيء {كُلُّ ٱلطَّعَامِ} أي كل طعام حلال على محمد وأمته {ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى} أي كان حلالاً أكله على أولاد يعقوب {إِسْرَٰءِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ} أي يعقوب {إِسْرَٰءِيلُ عَلَىٰ} بالنذر {نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ} على موسى وذلك بعد إبراهيم بألف سنة.

روى ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «إن يعقوب مرض مرضاً شديداً فنذر لئن عافاه الله ليحرمن أحب الطعام والشراب عليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها». قال الأصم: لعل نفسه كانت مائلة إلى أكل تلك الأنواع فامتنع من أكلها قهراً للنفس وطلباً لمرضاة الله تعالى كما يفعله كثير من الزهاد فعبَّر عن ذلك الامتناع بالتحريم. وروي أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك تدَّعي أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك حرام في دين إبراهيم؟ فأجاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن قال: «إن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام إلا أن يعقوب حرّمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده». أي فالحرمة عليهم ناشئة من نذره أيضاً. فأنكر اليهود ذلك فأمرهم الرسول عليه السلام بإحضار التوراة وباستخراج آية منها تدل على أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام، فعجزوا عن ذلك، فظهر أنهم كانوا كاذبين في ادعاء حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: {ٱلتَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَاةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ} في دعواكم بأن التحريم قديم. قال تعالى: {فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ} أي اختلق {عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ} بادعاء أنه تعالى حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل وعلى من قبلهم من الأمم {مِن بَعْدِ ذَلِكَ} أي من بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب لا على عهد إبراهيم {فَأُوْلَٰئِكَ} المصرون على الافتراء بعدما ظهرت حقيقة الحال {هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} المستحقون لعذاب الله {قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ} في أن سائر الأطعمة كانت محللة لبني إسرائيل وأنها إنما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم

{وَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ} أي ملة الإسلام التي هي الأصل ملة إبراهيم لأنها ملة محمد صلى الله عليه وسلم {حَنِيفاً} أي مائلاً عن الأديان الزائغة كلها {وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} في أمر من أمور دينه فإنه لم يدع مع الله إلهاً آخر ولم يعبد سواه كما فعله العرب من عبادة الأوثان، أو كما فعله اليهود في ادعاء أن عزيراً ابن الله. وكما فعله النصارى في ادعاء أن المسيح ابن الله. ولما حوَّل صلى الله عليه وسلم القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته وقالوا: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبل الكعبة وتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل. فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ} أي إن أول بيت بني لعبادات الناس للبيت الذي هو ببكة، سميت مكة بكة لأنه يبك بعضهم بعضاً، أي يزدحمون في الطواف.

روي أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس» وسئل كم بينهما فقال: «أربعون سنة». أي أن آدم بنى الكعبة ثم بنى الأقصى وبين بنائهما أربعون سنة. {مُبَارَكاً} أي ذا بركة مما يجلب المغفرة والرحمة

<ص: 111>

{وَهُدًى لِّلْعٰلَمِينَ} أي قبلة لكل نبي ورسول، وصدِّيق ومؤمن يهتدون بذلك البيت إلى جهة صلاتهم وذلك لأن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام بدليل قوله تعالى: {أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّيْنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْرٰءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَ ٱجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءايٰتُ ٱلرَّحْمٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً}(مريم: 85) فدلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله والسجدة لا بدّ لها من قبلة فلو كانت قبلة شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضعاً آخر سوى الكعبة لبطل قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ} فوجب أن يقال: إن قبلة أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة ومكرمة {فِيهِ ءَايٰتٌ بَيِّنٰتٌ} أي علامات واضحة كانحراف الطيور عن موازاة البيت فلا تعلو

فوقه بل إذا قابل هواه وهو في الجو انحرف عنه يميناً أو شمالاً، ولا يستطيع أن يقطع هواه إلا إذا حصل له مرض فيدخل هواه للتداوي ومخالطة ضواري السباع الصيود في الحرم من غير تعرض لها وإهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا تخريبه {مَّقَامُ إِبْرٰهِيمَ} وفيه دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم لأن تأثير قدميه في الصخرة الصمَّاء وعوضهما فيها إلى الكعبين وإلانة بعض الصخرة دون بعض وإبقاءه ألوف السنين معجزة عظيمة {وَمَن دَخَلَهُ} أي الحرم {كَانَ ءَامِناً} أي إن من دخله للنسك تقرباً إلى الله تعالى كان آمناً من النار يوم القيامة وأن الله أودع في قلوب الخلق الشفقة على كل من التجأ إليه {وَللَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ} أي قصده للزيارة على وجه مخصوص {مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ} أي حج البيت {سَبِيلاً} أي بلاغاً بوجود الزاد والراحلة والنفقة للعيال إلى الرجوع {وَمَن كَفَرَ} أي جحد فرض الحج {فَإِنَّ ٱلله غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعٰلَمِينَ} أي عن إيمانهم وحجهم.

قال الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان الستة المسلمين والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم، وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا». فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس، وقالوا: لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه فأنزل الله تعالى قوله: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱلله غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعٰلَمِينَ} أي ومن ترك اعتقاد وجوب الحج فإن الله غني عنه {قُلْ يٰأَهْلَ ٱلْكِتٰبِ} أي اليهود والنصارى {لِمَ تَكْفُرُونَ بِـأيٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} أي لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره، والحال أن الله شهيد على أعمالكم ومجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجترئوا على الكفر بآياته. {قُلْ يٰأَهْلَ ٱلْكِتٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ} أي لم تصرفون عن دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو ملة الإسلام. من آمن بالله وبمحمد وبالقرآن بإضلالكم لصفة المسلمين {تَبْغُونَهَا عِوَجاً} أي تطلبون للسبيل زيفاً لأنكم قلتم النسخ يدل على البدء. وقولكم: ورد في التوراة إن شريعة موسى باقية إلى الأبد {وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ} أن في

التوراة أن دين الله هو الإسلام لا يقبل غيره {وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} فإنهم كانوا يظهرون الكفر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما كانوا يظهرون إلقاء الشبه في قلوب المسلمين بل كانوا يحتالون في ذلك بوجوه الحيل.
نزلت هذه الآية في الذين دعوا عماراً وأصحابه إلى دينهم اليهودية {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} هم شاس بن قيس وعمرو بن شاس، وأوس بن قبطي وجبار بن صحر {يَرُدُّوكُم} أي يصيروكم {بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَوَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} أي كيف يوجد منكم الكفر والحال أن القرآن الذي فيه

<ص: 12>
بيان الحق من الباطل يتلى عليكم على لسان نبيكم غض طري، ومعكم رسول الله الذي يبين الحق ويدفع الشبه.
روي أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد، فاتفق أنه مرَّ على نفر من الأنصار الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون وقد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهود، فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك في بعاث وهو موضع في المدينة، وكان يوم بعاث يوماً اقتتل فيها الأوس والخزرج قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم بمائة وعشرين سنة وكان الظفر فيه للأوس. وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار، فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فوصل الخبر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار وقال: «أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وألَّف بين قلوبكم». فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان ومن كيد ذلك اليهودي فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم. قال الإمام الواحدي: اصطفوا للقتال. فنزلت الآية إلى قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} فجاء النبيّ صلى الله عليه

وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجعلوا يبكون {وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ} أي من يستمسك بكتاب الله وهو القرآن {فَقَدْ هُدِىَ} أي فقد حصل له الهدى {إِلَىٰ صِرَٰطٍ مّسْتَقِيمٍ} أي إلى طريق موصل إلى المطلوب.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حق معاذ وأصحابه، ثم نزل في أوس وخزرج لخصومة كانت بينهم في الإسلام افتخر فيهم ثعلبة بن غنم وأسعد بن زرارة بالقتل والغارة في الجاهلية {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} أي كما يجب أن يتقى وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كما في قوله تعالى: {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ}. ويقال: أطيعوا الله كما ينبغي. {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} لفظ النهي واقع على الموت. والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام أي ودوموا على الإسلام إلى الموت وذلك لأنه لما كان يمكنهم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت وهم على الإسلام صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في وسعهم {وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ} وهو دين الإسلام أو بكتابه وهو القرآن {جَمِيعاً} أي مجتمعين في الاعتصام لقوله صلى الله عليه وسلم: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق ومن عمل به رَشَدَ، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم». {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم لأن الحق لا يكون إلا واحداً وما عداه يكون ضلالاً {وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ} نعمة دنيوية وأخروية {إِذْ كُنتُم} في الجاهلية {أَعْدَآءً} يبغض بعضكم بعضاً ويحارب بعضكم بعضاً {فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} أي قذف الله فيها المحبة بتوفيقكم للإسلام {فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ} أي فصرتم بدينه الإسلام {إِخْوَاناً} في الدين {وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ ٱلنَّارِ} أي على طرفها، أي وكنتم قريبين من الوقوع في نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها. فليس بين الحياة والموت المستلزم للوقوع في الحفرة إلا ما بين طرف الشيء الذي هو مثل الحياة، وبين ذلك الشيء الذي

هو مثل الموت {فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا} أي فأنجاكم من تلك الحفرة بأن هداكم للإسلام {كَذَٰلِكَ} أي مثل البيان المذكور {يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} أي لكي تهتدوا من الضلالة {وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ}

<ص: 113>
أي ولتوجد منكم جماعة يقتدي بها فرق الناس {يَدْعُونَ} الناس {إِلَى ٱلْخَيْرِ} فأفضل الدعوة هي دعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات {وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ} والآمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب، وإن كان مندوباً فمندوب {وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ} فالنهي عن الحرام واجب كله لأن تركه واجب وهذه الأمور من فروض الكفايات لأنها لا تليق إلا من العالم بالحال وسياسة الناس حتى لا يوقع المأمور أو المنهي في زيادة الفجور فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل وأمر بالمنكر، ونهى عن المعروف وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة {وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} أي المختصون بكمال الفلاح.

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه. {وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ} أي تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين، أو تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيساً في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق، وأن صاحبه على الباطل. قال الفخر الرازي: إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة. فنسأل الله العفو والرحمة {مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ} أي الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة {وَأُوْلَٰئِكَ} الذين تفرقوا {لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} في الآخرة بسبب تفرقهم {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} أي يوم تظهر بهجة السرور على قوم وُسِموا ببياض الوجه والصحيفة، وإشراق البشرة. وسعى النور أمامهم ويمينهم. ويوم تظهر كآبة الخوف والحزن على قوم وُسِموا بسواد اللون والصحيفة، وإحاطة الظلمة بهم من كل جانب. وقرىء «تبياض» و«تسواد» {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

سْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} فيلقون في النار وتقول لهم الزبانية. {أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ} أي بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة. وقال عكرمة والأصم والزجاج: أي أكفرتم يا أهل الكتاب بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانكم به قبل مبعثه {فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ} والأمر بذوق العذاب على طريقة الإهانة {بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} أي بسبب كفركم {وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ} أي في جنة الله وعبَّر عنها بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى.

وقرىء «ابياضت»، كما قرىء «اسوادت» {هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} أي لا يظعنون عنها ولا يموتون {تِلْكَ} أي الآيات المشتملة على تنعيم الأبرارِ وتعذيب الكفار {ءَايَٰتُ ٱللَّهِ} أي دلائل الله {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ} أي بالمعنى الحق أو متلبسة بالعدل من أجزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه {وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَٰلَمِينَ} أي ما يريد الله فرداً من أفرادِ الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يفعله. وأما ظلم بعضهم بعضاً فواقع كثيراً، وكل واقع فهو بإرادته تعالى {وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} ملكاً وخلقاً إحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً {وَإِلَىٰ ٱللَّهِ} أي إلى حكمه {تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ} فيجازي كلاً منهم {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} أي أظهرت للناس حتى تميَّزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها {تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ} أي بالتوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم {وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ} أي عن الشرك ومخالفة الرسول {وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء. وقال قتادة: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبي قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الإسلام فهم خير أمة للناس {وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ} أي اليهود والنصارى إيماناً كاملاً كإيمانكم {لَكَانَ} أي ذلك الإيمان {خَيْراً لَّهُمْ} فإنهم آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام

ولو آمنوا لحصلت لهم هذه الزيادة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة فكان ذلك خيراً لهم مما قنعوا به. {مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ} كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود والنجاشي ورهطة من النصارى. {وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ} في أديانهم فيكونون مردودين عند الطوائف كلهم لأن المسلمين لا يقبلونهم لكفرهم، والكفار لا يقبلونهم لكونهم فاسقين فيما بينهم فليسوا ممن يجب الاقتداء بهم ألبتة عند أحد من العقلاء {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} أي لن يضركم اليهود ضرراً ألبتة إلا ضرراً يسيراً وهو أذى أي ليس على المسلمين من اليهود ضرر وإنما منتهى أمرهم أن يؤذوكم باللسان، إما بالطعن في محمد وعيسى عليهما السلام وإما بإظهار كلمة الكفر كقولهم: عزير ابن الله، وإما بتحريف نصوص التوراة، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين {وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلأَدْبَارَ} أي ينهزموا من غير أن يضروكم بقتل أو أسر {ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} أي ثم أخبركم أنهم بعد صيرورتهم منهزمين لا يحصل لهم شوكة ولا قوة ولا يجدون النصر قط بل يبقون في الذلة أبداً كما قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ} أي جعلت عليهم الذلة أن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم وتملك أراضيهم {أَيْنَ مَا ثُقِفُوۤاْ} أي صودفوا فلا يقدرون أن يقوموا مع المؤمنين {إِلاَّ} أن يعتصموا {بِحَبْلٍ مِّنْ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ} أي المؤمنين فالأمان الحاصل للذمي قسمان:

أحدهما: الذي نص الله عليه وهو أخذ الجزية.

وثانيهما: الذي فوض الله إلى رأي الإمام فيزيد فيه تارة وينقص بحسب الاجتهاد. فالأول: هو المسمى بحبل الله. والثاني: هو المسمى بحبل المؤمنين. {وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ} أي داموا في غضب الله أو استوجبوا لعنة الله {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ} أي جعل عليهم زي الفقر. واليهود في غالب الأحوال مساكين تحت أيدي المسلمين والنصارى {ذٰلِكَ} أي لزوم الذلة والمسكنة والمكث في اللعنة {بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِأايٰتِ ٱللَّهِ} الناطقة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحرفونها بسائر الآيات القرآنية {وَيَقْتُلُونَ ٱلأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} أي بلا جرم. فإن الذين قتلوا الأنبياء أسلافهم، وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل

أسلافهم فنسب إليهم كما أن التحريف من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يتبعهم {ذٰلِكَ} أي الكفر والقتل {بِمَا عَصَوْاْ} في السبت {وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} أي يتجاوزون حدود الله باستحلال المحارم. قال أرباب المعاملات مع الله: من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر {لَيْسُواْ} أي جميع أهل الكتاب {سَوَآءً} أي فليس من آمن منهم كمن لم يؤمن {مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ} أي جماعة عدل مهتدية بتوحيد الله وهم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم معهم من اليهود كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: هم عبد الله بن سلام وأخوه ثعلبة بن سلام وسعية وميس وأسيد وأسدهما ابنا كعب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا أشرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: {يَتْلُونَ ءَايٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ} أي يقرأون القرآن ساعات الليل {وَهُمْ يَسْجُدُونَ} أي يصلون التهجد في الليل. وهذا كلام مستقل والصلاة تسمى سجوداً. {يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلاٰخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِـ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرٰتِ} أي يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية {وَأُوْلَٰئِكَ} الموصوفون بالصفات السبعة {مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي من جملة الذين صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه. وقال ابن عباس: أي من صالحي أمة محمد صلى

<ص: 115>

الله عليه وسلم. ويقال: مع صالحي أمة محمد في الجنة مع أبي بكر وأصحابه. واعلم أن اليهود كانوا أيضاً يقومون في الليالي للتهجد وقراءة التوراة. فلما مدح الله المؤمنين منهم بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله: {يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلاٰخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِـ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرٰتِ} فالإيمان بالله يستلزم الإيمان

بجميع أنبيائه ورسله وكتبه، والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصي. فإيمان اليهود بالله مع قولهم عزير ابن الله، وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته، عدم الاحتراز عن معاصي الله وإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله ومبادرتهم إلى الشرور. واعلم أن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل. وأفضل الأعمال الصلاة وأفضل الأذكار ذكر الله. وأفضل المعارف معرفة المبدأ ومعرفة المعاد. فقوله تعالى: {يَتْلُونَ ءايٰتِ ٱللَّهِ ءانَاء ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم. وقوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلاْخِرِ} إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم، فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية، وذلك أكمل أحوال الإنسان وهي المرتبة التي هي آخر درجات الإنسانية، وأول درجات الملكية. واعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون تاماً وفوق التمام فكون الإنسان تاماً ليس إلا في كمال قوته العملية وقوته النظرية، وكونه فوق التمام أن يسعى في تكميل الناقصين وذلك بطريقين إما بإشاردهم إلى ما ينبغي أو بمنعهم عما لا ينبغي، ثم الوصف بالصلاح غاية المدح ويدل عليه القرآن والعقل. فإن الصلاح ضد الفساد وكل ما لا ينبغي فهو فساد سواء كان في العقائد أو في الأعمال، فإذا حصل كل ما ينبغي فقد حصل الصلاح فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات. ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات الثمانية قال: {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ}. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء في الفعلين. لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب، فإن جهَّال اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام وأصحابه: إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان. قال تعالى: {وَمَا يَفْعَلُواْ} أي عبد الله بن سلام وأصحابه من خير مما ذكر ويقال: من إحسان إلى محمد وأصحابه. {فَلَنْ يُكْفَرُوهُ} أي لن ينسى ثوابه بل يثابوا.

وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب لجميع المؤمنين الذين من جملتهم هؤلاء أي وما تفعلوا معاشر المؤمنين من خير فلن تمنعوا ثوابه وجزاءه بل تجاوزوا عليه {وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ} وهذا بشارة لهم بجزيل الثواب

ودلالة على أنه لا يفوز عنده تعالى إلا أهل التقوى {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ} أي لن تدفع عنهم {أَمْوٰلُهُمْ وَلاَ أَوْلَٰدُهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ} أي من عذابه {شَيْئاً وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} إنما خصَّ الله تعالى الأموال والأولاد بالذكر لأن أنفع الجمادات هو الأموال، وأنفع الحيوانات هو الولد. ثم بيَّن تعالى أن الكافر لا ينتفع بهما ألبتة في الآخرة، وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى. {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ} أي الكفار {فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} أي برد مهلك أو حر محرق {أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوۤاْ أَنفُسَهُمْ} بالكفر والمعاصي {فَأَهْلَكَتْهُ}. والمعنى مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للزرع، أو مثل الكافر الذي أنفق أمواله في الخيرات نحو بناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيراً كثيراً، فإذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلاً لآثار الخيرات فكان كمن زرع زرعاً وتوقَّع منه نفعاً كثيراً فأصابته ريح، فأحرقته، فلا يبقى إلا الحزن والأسف، هذا إذا أنفقوا الأموال في وجوه الخيرات. أما إذا أنفقوها فيما ظنوه أنه من الخيرات وهو من المعاصي مثل إنفاق الأموال في إيذاء رسول الله، وفي قتل المسلمين وتخريب ديارهم فهو أشد

<ص: 116>
تأثيراً في إبطال آثار أعمال البر {وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ} حيث لم يقبل نفقاتهم {وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} حيث أتوا بالنفقات مقرونة بالوجوه المانعة من كونها مقبولة لله. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} نزلت هذه الآية في شأن رجال من المؤمنين يشاورون اليهود في أمورهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظناً منهم أنهم ينصحون لهم في أسباب المعاش، فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه كما قاله ابن عباس أو في رجال من المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين فيفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال فالله تعالى منعهم عن ذلك كما قاله مجاهد وقال الله تعالى: {لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً} أي خاصة تباطنون في الأمور {مِّن دُونِكُمْ} أي من غير أهل ملتكم من الكفار

والمنافقين {لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً} أي لا يتركون جهدهم في مضرتكم وفسادكم {وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ} أي أحبوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر أي فإن الكفار لا يقصرون لكم في إفساد دينكم فإن عجزوا عنه أحبوا بقلوبهم إلقاءكم في أشد أنواع الضرر. {قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوٰهِهِمْ} أي قد ظهرت البغضاء في كلامهم بالطعن وغيره مما يدل على نفاقهم وبأنهم يظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم وينسبونكم إلى الجهل والحمق {وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ} من الحقد {أَكْبَرُ} مما يظهر على ألسنتهم. {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الاٰيٰتِ} أي علامة الحسد والعداوة {إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} الفرق بين ما يستحقه العدو والولي {هَـٰأَنتُمْ أُوْلاۤءِ} أي أنبهكم أنتم يا معشر المؤمنين المخطئين في موالاتهم {تُحِبُّونَهُمْ} بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة، وبسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان وأنهم يظهرون لكم محبة رسول الله {وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ} بسبب المخالفة في الدين وبسبب أن الكفر مستقر في باطنهم ولأنهم يعلمون أنكم تحبون الرسول {وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتٰبِ كُلِّهِ} وهم لا يؤمنون به وهم مع إيمانكم بكتبهم يبغضونكم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم {وَإِذَا لَقُوكُمْ} أي منافقو اليهود {قَالُوۤاْ} نفاقاً: {ءَامَنَّا} بمحمد فإن نعته في كتابنا {وَإِذَا خَلَوْاْ} أي رجع بعضهم إلى بعض {عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلاٰنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ} أي عضوا لأجل غمهم منكم أطراف الأصابع من شدة الغضب أي فإذا رجعوا إلى بعضهم أظهروا شدة العداوة على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه ولما كثر هذا الفعل من الغضبان صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان: إنه يعض يده غيظاً وإن لم يكن هناك عض. {قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ} وهذا دعاء عليهم بازدياد ما يوجب هذا الغيظ وهو قوة الإسلام ودعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون، وليس أمراً بالإقامة على الغيظ فإن الغيظ كفر والأمر بالكفر غير جائز، ويجوز أن يكون معنى قوله: {قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ} إنه تعالى أمر رسوله بطيب النفس وقوة الرجاء، والاستبشار بوعد الله إياه أنهم يهلكون غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به كأنه قيل: حدِّث نفسك بذلك {إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} أي إنه تعالى عالم بكل ما

يحصل في قلوبكم من الخواطر والبواعث والصوارف {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ} أي إن تصبكم منفعة الدنيا تحزنهم وذلك كصحة البدن، وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وحصول المحبة بين الأحباب. {وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ} أي مضرة كمرض وفقر وانهزام من عدو، وقتل ونهب وغارة وحصول التفرقة بين الأقارب {يَفْرَحُواْ} أي اليهود والمنافقون {بِهَا} فإنهم متناهون في عداوتكم فاجتنبوهم {وَإِن تَصْبِرُواْ} على طاعة الله وعلى ما ينالكم فيها من شدة وغم {وَتَتَّقُواْ}

<ص: 117>
كل ما نهاكم عنه وتتوكلوا في أموركم على الله {لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ} أي حيلتهم التي دبروها لأجلكم {شَيْئاً} من الضرر لأن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى، واتقى كل ما نهى الله عنه كان في حفظ الله فلا يضره حيل المحتالين.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «لا يضركم» بفتح الياء وكسر الضاد وسكون الراء. والباقون «لا يضركم» بضم الضاد والراء المشددة على الجزم بسكون مقدر للاتباع.

وروى المفضل عن عاصم «لا يضركم» بفتح الراء للتخفيف. {إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} بالياء باتفاق القراء العشرة. أي إنه عالم بما يعملون في معاداتكم فيعاقبهم عليه. وفي قراءة شاذة بالتاء. والمعنى أنه تعالى عالم بما تعملون من الصبر والتقوى فيفعل بكم ما أنتم مستحقون له {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ} أي واذكر يا أشرف الخلق لأصحابك وقت خروجك من عند أهلك أي من حجرة عائشة إلى أحد ليتذكر، وإما وقع في ذلك الوقت من الأحوال الناشئة من عدم الصبر فيعلموا أنهم لو لزموا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة.

روي أنه صلى الله عليه وسلم ذهب من منزل عائشة في المدينة فمشى على رجليه إلى أحد بعد صلاة الجمعة في نصف شوال، وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت، وجعل يصف أصحابه للقتال، وكانوا ألفاً وأقل، وكان الكفار ثلاثة آلاف. وجعل صلى الله عليه وسلم ظهره وظهر عسكره إلى أحد، وأمر عبد الله بن جبير على

الرماة وقال: «ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا» وقال لأصحابه: «اثبتوا في هذا المقام فإذا عاينوكم ولوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام» .فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بن أبي مع ثلاثمائة من المنافقين فبقي من عسكر المسلمين سبعمائة، ثم قوَّاهم الله حتى هزموا المشركين، ثم طلبوا المدبرين وتركوا ذلك المقام واشتغلوا بطلب الغنائم، وخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكرَّ عليهم المشركون وتفرَّق المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشجَّ وجه الرسول، وكسرت رباعيته، وشلَّت يد طلحة ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد، ووقعت الصيحة في العسكر أن محمداً قد قتل وكان رجل يكنى أبا سفيان من الأنصار نادى الأنصار وقال: هذا رسول الله فرجع إليه المهاجرون والأنصار وكان قد قتل منهم سبعون وكثر فيهم الجراح. وكل ذلك يؤكد قوله تعالى: {وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} والظفر إنما حصل ببركة طاعتهم لله ولرسوله وإلا لم يقوموا مع عدوهم {تُبَوِّىءُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} أي تنزل المؤمنين بأحد أمكنة لقتال عدوهم {وَٱللَّهُ سَمِيعٌ} لأقوالكم {عَلِيمٌ} بضمائركم ونياتكم فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم شاور أصحابه في ذلك الحرب، فمنهم من قال له: أقم بالمدينة وهو عبد الله بن أبيّ، وأكثر الأنصار. ومنهم من قال له: اخرج إليهم وكان لكل أحد غرض.{إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ} بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج وهما جناحا العسكر {أَن تَفْشَلاَ} أي بأن تجبنا عن قتال العدو يوم أحد وترجعا.

روي أنه صلى الله عليه وسلم خرج مع تسعمائة وخمسين، ووعدهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا عند جبل أحد انعزل ابن أبي المنافق مع ثلاثمائة من أصحابه المنافقين وقال: يا قوم لأي شيء نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري وأبو جابر السلمي وقالا: أسألكم بالله في حفظ نبيكم وأنفسكم أي فإنكم لو رجعتم فاتتكم نصرة نبيكم، وفاتتكم وقاية أنفسكم من العذاب لتخلفكم عن نبيكم فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالاً

لاتبعناكم، فهمَّ الطائفتان باتباع عبد الله بن أبي فعصمهم الله فثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: {وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا} أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطوة {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} في جميع أمورهم فإنه حسبهم، ولما حكى الله عن الطائفتين أنهما همَّتا بالجبن والضعف أيَّد ذلك بقصة بدر، فإن المسلمين كانوا في غاية الفقر والضعف

<ص: 118>
والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة ولكن لما كان الله ناصراً لهم قهروا أعداءهم وفازوا بمطلوبهم. وقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال، وعدم القدرة على مقاومة العدو فإن المسلمين كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وما كان فيهم إلا فرس واحد. والكفار كانوا قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة.{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} في أمر الحرب ولا تخالفوا الأمير الذي معكم {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} لكي تشكروا نعمته تعالى ونصرته {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} ف«إذ» إما منصوب بنصركم ويكون هذا الوعد حصل يوم بدر، وهذه الجملة من تمام قصة بدر وهو قول أكثر المفسرين، وإما بدل من قوله: {إِذْ هَمَّتْ} أو بدل ثانٍ من قوله تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ} ويكون هذا الوعد حصل يوم أحد وهذه الجملة من تمام قصة أحد فيكون قوله: ولقد نصركم الله معترضاً بين الكلامين وهو مروي عن ابن عباس والكلبي والواقدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق {أَلَنْ يَكْفِيكُمْ} مع عدوكم {أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ} أي ينصركم {بِثَلاَثَةِ ءَالاَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰئِكَةِ مُنزَلِينَ} من السماء.

قرأ ابن عامر «منزلين» مشدد الزاي مفتوحة. والباقون بفتح الزاي مخففة. وقرىء قراءة شاذة باسم الفاعل من الصيغتين أي منزلين النصر {بَلَىٰ} يكفيكم {إِن تَصْبِرُواْ} مع نبيكم في الحرب {وَتَتَّقُواْ} معصية الله ومخالفة نبيه صلى الله عليه وسلم {وَيَأْتُوكُمْ} أي يأتيكم المشركون {مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا} أي من ساعتهم هذه من جهة مكة

{يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} أي ينصركم على عدوكم {بِخَمْسَةِ ءَالافٍ مِّنَ ٱلْمَلَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ}.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو أي معلمين أنفسهم أو خيلهم. والباقون بفتح الواو أي معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها أو مجذوذة أذنابهم أو مرسلين {وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ} أي ما جعل الله الإمداد {إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ} بأنكم تنصرون {وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ} أي بالمدد. وفي ذكر الإمداد مطلوبان: إدخال السرور في قلوبكم وحصول الطمأنينة على أن إعانة الله معهم {وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ} لا من العدة والعدد ولا من عند الملائكة {لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ} واللام متعلق بقوله: وما النصر. والمعنى والمقصود من نصركم إن يهلك الله طائفة من كفار مكة بقتل وأسر {أَوْ يَكْبِتَهُمْ} أو يهزمهم ويخزيهم {فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ} أي يرجعوا منقطعي الآمال غير فائزين بمطلوبهم بشيء {لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلأَمْرِ شَىْءٌ}. وهذه الآية نزلت في قصة أحد لمنعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم لما روي أن عتبة بن أبي وقاص شجه وكسر رباعيته وهي السن التي بين الثنية والناب ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية، ولما روى سالم بن عبدالله بن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن أقواماً فقال: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحرث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية». فنزل قوله تعالى: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم. ولما حصل له صلى الله عليه وسلم من الهم بأنه رأى حمزة بن عبد المطلب ورأى ما فعلوا به من المثلة وقال: «لأمثلهن منهم بثلاثين» فنزلت هذه الآية ومات في ذلك اليوم من المسلمين سبعون، وأسر عشرون ومات من الكفار ستة عشر.

وروي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت بسبب أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا يوم أُحُد فمنعه الله من ذلك، وإنما نصَّ الله تعالى على المنع تقوية لعصمته {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ} وهذان إما معطوفان على الأمر. والمعنى ليس لك يا أشرف الخلق من شأن هذه الحادثة شيء ومن التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء، لأنه ليس لك من

مصالح عبادي شيء إلا ما أوحي إليك وليس لك من سؤال إهلاكهم شيء لأنه تعالى أعلم بالمصالح، فربما تاب الله

<ص: 119>
عليهم أو معطوفان على «شيء» أي ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم.

وقيل: المراد بالأمر ضد النهي. والمعنى ليس لك من أمر خلقي شيء، أو من توبتهم أو من تعذيبهم شيء إلا إذا كان على وفق أمري. والمقصود من الآية منعه صلى الله عليه وسلم من كل فعل وقول إلا ما كان بإذنه وأمره وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية {فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ} أي بالمعاصي وهذه جملة مستقلة لكن المقصود من ذكرها تعليل لحسن التعذيب. والمعنى {أَوْ يُعَذّبَهُمْ} فإنه تعالى إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون. والمراد بالعذاب إما عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فعلم ذلك مفوَّض إلى الله {وَللَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} ملكاً وخلقاً {يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ} مغفرته {وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ} تعذيبه وتقديم المغفرة على التعذيب للإعلام بأن رحمته تعالى سبقت غضبه وبأن الرحمة من مقتضيات الذات دون الغضب فإنه من مقتضيات سيئات العصاة {وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} والمغفرة والرحمة على سبيل الإحسان، أما التعذيب فعلى سبيل العدل لأن الطاعة لا توجب الثواب، والمعصية لا توجب العقاب بل الكل من الله بحكم إلهيته وقهره وإرادته. {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَا أَضْعَٰفاً} على الدرهم {مُّضَٰعَفَةً} في الأجل وكان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجداً لذلك المال، قال: زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين، ثم إذا حلَّ الأجل الثاني فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها. فهذا هو المراد من قوله: {أَضْعَٰفاً مُّضَٰعَفَةً}.

وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين بلا ألف قبلها.

وقال القفال: يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالاً جمعوها بسبب الربا. فلعل ذلك يصير داعياً للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال، وينفقوه على العسكر فيتمكنوا من الانتقام منهم فحقاً نهاهم الله عن ذلك. {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} فيما نهيتم عنه من أخذ الربا وغيره {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي لكي تنجوا من العذاب والسخط {وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ} بأن تجتنبوا ما يوجبها وهو استحلال ما حرم من الربا وغيره {ٱلَّتِيۤ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ} وكان أبو حنيفة يقول: هذه الآية أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وفي الآية تنبيه على أن النار بالذات للكفار وبالعرض للعصاة. {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ} فيما يأمركم به وينهاكم عنه من أخذ الربا وغيره {وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الذي يبلغكم أوامر الله ونواهيه فإن طاعة الرسول طاعة لله {وَسَارِعُوۤاْ}.

قرأ نافع وابن عامر بغير واو أي بادروا واقبلوا. وقرىء شاذة وسابقوا {إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} أي إلى الإسلام كما قاله ابن عباس وإلى أداء الفرائض كما قاله علي بن أبي طالب والصلوات الخمس وإلى الإخلاص كما قاله عثمان بن عفان وإلى الجهاد كما قاله الضحاك ومحمد بن إسحاق وإلى التكبيرة الأولى كما قاله سعيد بن جبير وإلى جميع الطاعات كما قاله عكرمة وإلى التوبة من الربا والذنوب كما قاله الأصم وابن عباس {وَجَنَّةٍ} أي فكما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة. فمعنى الغفران إزالة العقاب، ومعنى الجنة إيصال الثواب فلا بد للمكلف من تحصيل الأمرين {عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلأَرْضُ} أي عرضها مثل عرض السموات والأرض لو جعلت السموات والأرض طبقاً طبقاً، بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحاً مؤلفاً من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل البعض بالبعض طبقاً واحداً لكان ذلك مثل عرض الجنة وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله تعالى {أُعِدَّتْ} أي هيئت الجنة {لِلْمُتَّقِينَ} ثم ذكر الله تعالى صفات المتقين فقال: {ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ} أموالهم في سبيل الله تعالى {فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ} أي في حال الغنى

والفقر أو في سرور وحزن، أو على وفق طبعهم وعلى خلافه كما يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة.

<ص: 120>
وعن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب {وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ} أي الكافين غيظهم.
قال صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». وقال صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه زوجه الله من الحور العين حيث يشاء». وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصرعة لكنه الذي يملك نفسه عند الغضب». {وَٱلْعَٰفِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ} ومحبة الله للعبد أعظم درجات الثواب. روي عن عيسى ابن مريم أنه قال: «ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ذلك مكافأة، إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك». واعلم أن الإنسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه أو بدفع الضرر عنه، أما إيصال النفع إليه فيدخل فيه إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين، وهداية الضالين ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات، وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا بأن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى فهذا داخل في كظم الغيظ، وأما في الآخرة بأن يبرىء ذمة الغير عن المطالبات فهذا داخل في العفو عن الناس. فهذه الآية دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير. {وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً} أي معصية {أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ} بأن أتوا أيّ ذنب كان {ذَكَرُواْ ٱللَّهَ} أي خافوا الله. قال بعضهم: لما وصف الله تعالى الجنة بأنها معدة للمتقين بيَّن أن المتقين قسمان:
أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس.
وثانيهما: الذين أذنبوا ثم تابوا. وعلى هذا فالاسم الموصول معطوف على الموصول قبله. وقيل: لما ندب الله تعالى في الآية الأولى إلى الإحسان إلى الغير ندب في هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس وعلى هذا فالاسم الموصول معطوف على المحسنين.

روى ابن عباس أن هذه الآية نزلت في رجلين أنصاري وثقفي والرسول صلى الله عليه وسلم كان قد آخى بينهما وكانا لا يفترقان في أحوالهما، فخرج الثقفي مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرعة في السفر وخلف الأنصاري على أهله يتعاهدهم فكان يفعل ذلك، ثم قام إلى امرأته ليقبلها فوضعت كفها على وجهها، فندم الرجل، فلما وافى الثقفي مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرَ الأنصاري وكان قد هام في الجبال للتوبة فلما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم سكت حتى نزلت هذه الآية. وقال عطاء: نزلت في شأن أبي سعيد نبهان التمار فإنه أتته امرأة حسناء تطلب منه تمراً بالشراء، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبَّلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك فنزلت هذه الآية: {وَ ٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ} أي أتوا بالتوبة على الوجه الصحيح لأجل ذنوبهم، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل فهذا هو حقيقة التوبة، فأما الاستغفار باللسان فذاك لا أثر له في إزالة الذنب بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة ولإظهار انقطاعه إلى الله تعالى. وقوله: «فاستغفروا» معطوف على جواب «إذا». {وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلاَّ ٱللَّهُ} أي لا يغفر ذنوب التائب أحد إلا الله {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ} من الذنوب بأن أقلعوا عنها في الحال وهذا معطوف على قوله: «فاستغفروا» {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أن الذي فعلوه معصية الله، وهذه الجملة حال من فاعل «يصروا» {أُوْلَٰئِكَ} الذين خافوا الله وتابوا من ذنوبهم {جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} لذنوبهم {وَجَنَّٰتٌ} أي بساتين {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ} أي من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن {خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي دائمين في الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها {وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ} أي نعم ثواب التائبين المغفرة والجنات. {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} أي قد مضت من قبل زمانكم سنن الله تعالى في الأمم السالفة المكذبة

للرسل بإهلاكهم إن لم يتوبوا، وبالمغفرة إن تابوا، فرغب الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم في تأمل أحوال هؤلاء الماضين ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسله والإعراض عن الرياسة في الدنيا وطلب الجاه {فَسِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُواْ} أي تعرفوا أيها المؤمنون أحوال الأمم السالفة بسير أو غيره، ثم تفكروا فيها للتسلي والاتعاظ. {كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ} أي كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل الذين لم يتوبوا من تكذيبهم {هَٰذَا} القرآن {بَيَانٌ} بالحلال والحرام {لِّلنَّاسِ} عامة {وَهُدًى} من الضلالة {وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}. فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان:

أحدهما: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدي.

والثاني: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة، وإنما خص الله المتقين بالهدي والموعظة لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم {وَلاَ تَهِنُوا} أي لا تضعفوا عن الجهاد مع عدوكم {وَلاَ تَحْزَنُوا} على ما فاتكم من الغنائم يوم أُحُد، ولا على ما أصابكم من القتل والجراحة وكان قد قتل يومئذ سبعون رجلاً خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن جحش ابن عمة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشماس بن عثمان وسعد مولى عتبة وباقيهم من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ} أي والحال أنكم في آخر الأمر الغالبون بالنصرة لكم دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسب ما شاهدتم من أحوال أسلافهم {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} وهذا إما منصب بالنهي أو بوعد النصر والغلبة، أي إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وقلة المبالاة بالأعداء، أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون فإن الإيمان يقتضي العلو بلا شك {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} أي إن أصابكم جرح يوم أحد فقد أصاب أهل مكة يوم بدر جرح مثل ما أصابكم يوم أُحُد ثم لم يضعف ذلك قلوبكم فأنتم أحق بأن لا تضعفوا. وقيل: إن المعنى إن نالكم يوم أُحُد قرح وانهزام فقد نال الكفار في ذلك اليوم

مثل ذلك، فإن المسلمين نالوا من الكفار قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفاً وعشرين رجلاً منهم صاحب لوائهم وجرحوا عدداً كثيراً، وعقروا عامة خيلهم بالنبل وقد كانت الهزيمة عليهم في أول النهار {وَتِلْكَ ٱلأَيَّامُ} أي أيام الدنيا {نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ} لا يدوم مسارها ولا مضارها فيوم يحصل فيه السرور للمؤمنين، والغم للأعداء ويوم آخر بالعكس، وليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين، والأخرى ينصر الكافرين وذلك لأن نصرة الله منصب شريف فلا يليق بالكافر بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفارة وأخرى على المؤمنين ولو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب. وأيضاً إن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي فيشدد الله المحنة عليه في الدنيا تأديباً له وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه غضب من الله عليه. وأيضاً إن لذات الدنيا وآلامها غير باقية وإنما السعادات المستمرة في دار الآخرة.

وروي أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا عمرٌ فقال أبو سفيان: يوم بيوم، والأيام دول، والحرب سجال. فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال: إن كان الأمر كما تزعمون فقد خبنا إذاً وخسرنا. {وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} واللام متعلقة بفعل مضمر. والتقدير وفعلنا هذه المداولة لكي يرى الله الذين أخلصوا في إيمانهم متميزين من المنافقين إذا أصابتهم المشقة كما وقع في أحد {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ} أي يكرم الله من يشاء منكم بالشهادة

<ص: 122>

وهم شهداء أحد {وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ} أي المشركين وإنما يظفرهم في بعض الأحيان استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين {وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} أي ليطهرهم من

ذنوبهم بما يصيبهم في الجهاد إن كانت الغلبة للكافرين على المؤمنين {وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي يهلكهم في الحرب إن كانت الغلبة للمؤمنين على الكافرين {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ} والخطاب للذين انهزموا يوم أحد. أي أظننتم أن تدخلوا الجنة وتفوزوا بنعيمها والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أي الجمع بينهما أي لا تحسبوا ذلك والحال أن الله تعالى لم ير المجاهدين منكم في سبيل الله يوم أحد والصابرين على قتال عدوهم مع نبيهم {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ} بالشهادة في الحرب {مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ} أي الموت يوم أحد حيث قلتم: ليت لنا يوماً كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه من الكرامة وكانوا قد ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد في الخروج، ثم ظهر منهم خلاف ذلك {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} أي إن كنتم صادقين في تمنيكم الحرب فقد رأيتم الموت بمشاهدة أسبابه يوم أحد {وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} إلى سيوف الكفار حين قتل أمامكم من قتل من إخوانكم، فلم انهزمتم منهم ولم تثبتوا مع نبيكم؟ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ} أي قد مضت من قبل محمد أمثاله من رسل الله تعالى.

قال ابن عباس ومجاهد والضحَّاك: لما نزل النبيّ صلى الله عليه وسلم بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل ثم قتل على طلحة صاحب لواء الكفار، وشد الزبير والمقداد على المشركين فانهزم الكفار، ثم بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة وكان خالد بن الوليد صاحب ميمنة الكفار فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم، وفرق جمعهم، ورمى عبد الله بن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشجَّ وجهه وأقبل يريد قتله فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأحد فقتله ابن قميئة فظن أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل ففشا في الناس خبر قتله فهناك قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم. وقال قوم من المنافقين: لو كان محمداً نبياً لما قتل وإن كان قد قتل فارجعوا إلى

دينكم الأول. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد حيٌّ لا يموت وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء المسلمون وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المنافقين، ثم سلَّ سيفه فقاتل حتى قُتل رحمه الله تعالى. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس ويقول: «إليَّ عباد الله» فأول من عرفه صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وقال: عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إلي أن أمسك، فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم، فقالوا: يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قُتِلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله تعالى هذه الآية: {أَفإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ} أي أصرتم كفاراً بعد إيمانكم إن مات محمد أو قتل كغيره من الرسل فتخالفوا سنن أتباع الأنبياء قبلكم في ثباتهم على ملل أنبيائهم بعد موتهم. أي لا ينبغي منكم الارتداد حينئذ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم مبلِّغ لا معبود وقد بلَّغكم

<ص: 123>
والمعبود باقٍ فلا وجه لرجوعكم عن الدين الحق لو مات من بلغكم إياه. {وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً} أي ومن يرجع إلى دينه الأول وهو الشرك فلن ينقص الله رجوعه شيئاً وإنما يهلك نفسه بإقباله على العذاب. {وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ} أي الثابتين على دين الإسلام الذي هو أجل نعمة وأعز معروف كأنس بن النضر وأمثاله {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله} أي بإرادة الله وقضائه {كِتَٰباً مُّؤَجَّلاً} أي كتب الله الموت كتاباً مؤقتاً كتابة أجله ورزقه سواء لا يسبق أحدهما الآخر. وهذا إعلام بأن الحذر لا يدفع القدر وأن أحداً لا يموت قبل الأجل، وإذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشيء فلا فائدة في الجبن والخوف {وَمَن يُرِدْ} بعمله {ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا}أي منفعة الدنيا

{نُؤْتِهِ مِنْهَا} أي نعطه من الدنيا ما يريد مما نشاء أن نعطيه إياه وما له في الآخرة من نصيب {وَمَن يُرِدْ} بعمله {ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ} أي منفعة الآخرة {نُؤْتِهِ مِنْهَا} أي نعطه من الآخرة ما يريد مما نشاء من الأضعاف حسب ما جرى به الوعد الكريم {وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ} أي نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى إلى ما خلق لأجله من طاعة الله.

فاعلم أن الذين حضروا يوم أحد كانوا فريقين: منهم من يريد الدنيا كالذين كانوا المركز طلباً للغنيمة والثناء، وهؤلاء لا بد وأن ينهزموا. ومنهم من يريد الآخرة كالذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا والذين حضروا للدين لا بد وأن لا ينهزموا. واعلم أن هذه الآية وإن وردت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال وذلك لأن المؤثر في جلب الثواب والعقاب الدواعي. والمقصود لا ظواهر الأعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات». فإن من وضع الجبهة على الأرض في صلاة الظهر والشمس قدامه فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى كان ذلك من أعظم دعائم الإسلام وإن قصد به عبادة الشمس كان ذلك من أعظم دعائم الكفر {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ}

قرأ ابن كثير «كأين» بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة. والباقون بهمزة بعد الكاف بعدها ياء مشدودة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وقتل مبنياً للمفعول. وقتادة كذلك إلا أنه شدد التاء، وباقي السبعة «قاتل» وضمير الفعل يعود على المبتدأ والجملة خبر المبتدأ. وجملة «معه ربيون» من المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال من ضمير الفعل، و«كثير» صفة ل«ربيون». والمعنى على القراءة الأولى وكثير من الأنبياء قتلوا وبعدهم الذين بقوا من جماعتهم فما وهنوا أي ضعفوا في دينهم بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم، فكان ينبغي أن يكون حالكم يا أمة محمد هكذا. قال سعيد بن جبير: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. وقال الحسن البصري وجماعة من العظماء: لم يقتل نبي في حرب قط، والمعنى على القراءة المشهورة وكثير من نبي قاتل لإعلاء كلمة الله

وإعـزاز دينـه كائنـاً معـه فـي القتـال جماعـات كـثيرة مـن أصحابه فأصابهم من عدوهم قرح فما وهنـوا أي جبنـوا لأن الذي أصابهم إنما هو في طاعـة اللـه وإقامـة دينـه ونصـرة رسوله فكذلك ينبغـي أن تفعلـوا مثـل ذلـك يـا أمـة محمـد {وَمَا ضَعُفُواْ} أي عجزوا عن قتال عدوهم {وَمَـا ٱسْتَكَانُواْ} أي ذلوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل: قتل نبيكم وأردتم أن تعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبـي فـي طلـب الأمـان مـن أبي سفيان {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ} على تحمل الشدائد فـي طريق الله أي يكرمهم ويعظمهم {وَمَا كَـانَ قَـوْلَهُمْ} بعـدما قتل نبيهم {إِلاَّ أَن قَالُواْ} هذا الدعاء. وقولهم بالنصـب خـبر لكان واسمها أن وما بعدها {رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا} الصـغائر والكبائر {وَإِسْرَافَنَا} أي إفراطنا {فِيۤ أَمْرِنَـا} بإتيـان الـذنوب العظيمة الكبيرة {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} بإزالة الخوف عـن القلـوب وإزالة الخواطر الفاسدة عن الصدور {وٱنصُرْنَا عَلَـى ٱلْقَـوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ} وهذا تأديب من الله تعالى في

<ص: 124>
كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن سـواء كـان فـي الجهاد أو غيره {فَـَٔاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا} بالنصرة والغنيمـة، وقهر العدو، والثناء الجميل، وانشـراح الصـدر بنـور الإيمـان، وزوال ظلمـات الشـبهات وكفـارة المعاصـي والشـبهات {وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلآخِرَةِ} أي حكم الله لهم بحصول الجنة وما فيهـا مـن المنـافع واللـذات وأنـواع السـرور والتعظيـم فـي الآخـرة {وَٱللَّـهُ يُحِـبُّ ٱلْمُحْسِـنِينَ} أي المعـترفين بكـونهم مسيئين، فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين كأن اللـه تعـالى يقـول لهـم: إذا اعـترفتم بإسـاءتكم وعجزكـم فأنـا أصفكم بالإحسان وأجعلكم أحباء لنفسي حتى تعلموا أنـه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة اللـه إلا بإظهـار الذلـة والمسكنة والعجـز. {يَـٰأَيُّهَـا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُوۤاْ إِن تُطِيعُـواْ ٱلَّـذِينَ كَفَرُواْ} أي المنافقين في قولهم للمؤمنين المنهزمين ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قتـل {يَرُدُّوكُـمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُـمْ} أي يرجعـوكم إلـى دينكـم الأول. قـال علـي: والمراد بالذين كفروا: المنافقون، كما تقدم.

وقال السدي وغيره: المراد بهم أبو سفيان بن حرب لأنه شجرة الفتن وكبير القوم في ذلك اليـوم. ومعنـى الآيـة

حينئذ إن تخضعوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل: المراد عبد الله بن أبي وأتباعه من المنافقين لأنهم قالوا: لو كان محمد رسول الله ما وقعت له هذه الواقعة فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه. وقال ابن عباس: والمراد بهم اليهود كعب وأصحابه. والمراد بالذين آمنوا حذيفة وعمار {فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ} أي فترجعوا مغبونين في الدارين بالانقياد للعدو والتذلل له وبالحرمان عن الثواب المؤبد، والوقوع في العقاب المخلد {بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَٰكُمْ} أي ناصركم {وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ} أي أقواهم بالنصرة. فلا ينبغي أن تطيعوا الكفار لينصروكم لأنهم عاجزون {سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ} أي سنقذف في قلوب كفار مكة المخافة منكم حتى انهزموا وذلك أن الكفار لما هزموا المسلمين في أحد أوقع الله الرعب في قلوبهم فتركوهم وفروا منهم من غير سبب. حتى روي أن أبا سفيان صعد الجبل وقال: أين ابن أبي كبشة؟ وأين ابن أبي قحافة؟ وأين ابن الخطاب؟ فأجابه عمر ودارت كلمات بينهما وما تجاسر أبو سفيان على النزول من الجبل والذهاب إليهم. {بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ} أي بعبادته {سُلْطَٰناً} أي كتاباً ولا رسولاً {وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ} أي مسكنهم في الآخرة النار {وَبِئْسَ مَثْوَىٰ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي وبئس مقر الكافرين النار {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ} يوم أحد. نزلت هذه الآية لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم بأحد قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: {إِذْ تَحُسُّونَهُمْ} أي تقتلونهم قتلاً كثيراً في أول الحرب {بِإِذْنِهِ} أي بعلمه ونصرته {حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ} أي إلى أن ضعفتم في الرأي أو إلى حين الغنيمة {وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلأَمْرِ} أي اختلفتم في أمر الحرب أو في امتثال أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكانهم ألبتة، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير، فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن فقالوا: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد الرسول إلينا أن

لا نبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة وبقي عبد الله مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون. {وَعَصَيْتُمْ} أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإقامة في أصل الجبل وتركتم المركز لأجل تحصيل الغنيمة {مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ} أي بعد ما أراكم النبيّ صلى الله عليه وسلم النصرة والغنيمة {مِنكُم} أي من

<ص: 125>
الرَماة {مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا} بجهاده، وهم الذين تركوا المركز لأجل الغنيمة {وَمِنكُم} أي من الرماة {مَّن يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ} بجهاده وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى قتلوا وهم عبد الله بن جبير وأصحابه {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} أي ثم رد المسلمين عن الكفار وألقى الهزيمة عليهم وسلط الكفار عليهم {لِيَبْتَلِيَكُمْ} أي ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره وملتم فيه إلى الغنيمة {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} لما علم من ندمكم على المخالفة وتفضلاً منه تعالى {وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ} حيث لم يستأصل الرماة {إِذْ تُصْعِدُونَ} أي تذهبون في الأرض {وَلاَ تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ} أي ولا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب {وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيۤ أُخْرَاكُمْ} أي وهو واقف في آخركم وكان يقول: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله أنا رسول الله من يقرّ فله الجنة» {فَأَثَٰبَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ} أي جازاكم الله عما حصل لكم بسبب الانهزام، وقتل الأحباب، وفوت الغنائم بغم حصل للرسول بسبب عصيانكم أمره {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ} من الغنيمة {وَلاَ مَآ أَصَٰبَكُمْ} من القتل والجراحة. قال أبو السعود: أي لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضر آت {وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي عالم بأعمالكم ومقاصدكم قادر على مجازاتها إن خيراً فخير وإن شراً فشر {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً} من العدو {نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ} أي يأخذ النعاس المهاجرين وعامة الأنصار {وَطَآئِفَةٌ} وهم المنافقون عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وأصحابهما {قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ} أي أوقعهم في الهموم لأن أسباب الخوف وهي قصد العدو كانت حاصلة

لهم والدافع لذلك وهو الوثوق بوعد الله ورسوله غير معتبر عندهم لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم فلذلك عظم الخوف في قلوبهم {يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ} أي كانوا يقولون في أنفسهم لو كان محمد محقاً في دعواه لما سلط الكفار عليه وهذا ظنٌ فاسد والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا اعتراض لأحد عليه، فإن النبوة خلعة من الله تعالى يشرف عبده بها وليس يجب في العقل أن الله تعالى إذا شرف عبده بخلعة أن يشرفه بخلعة أخرى بل له الأمر والنهي كيف شاء بحكم الإلهية {يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلأَمْرِ مِن شَىْءٍ} أي هل لنا من النصر الذي وعدنا به محمد نصيب قط. وهذا الكلام إن كان قائله من المنافقين كعبد الله بن أبي فإنما قاله طعناً في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي الإسلام وإن كان من المؤمنين المحقين كان غرضه منه إظهار الشفقة أنه متى يكون الفرج ومن أين يكون تحصل النصرة. {قُلْ إِنَّ ٱلأَمْرَ} أي التدبير {كُلَّهُ لِلَّهِ} فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى في سابق قضائه فلا مرد له {يُخْفُونَ فِى أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ} أي يقولون فيما بينهم بطريق الخفية مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب مخافة القتل {يَقُولُونَ} أي معتب بن قشير وعبد الله بن أبي: {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا} أي لو كان لنا من التدبير والرأي شيء ما قتل من قتل منا في هذه المعركة وما غلبنا

<ص: 126>

{قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ} أي قل يا أشرف الخلق لهم لو جلستم في بيوتكم في المدينة لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلى مصارعهم أي أماكنهم التي ماتوا فيها عند أحد حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد فإن الحذر لا يدفع القدر والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر الله عليهم القتل لا بد وأن يقتلوا لأن الله تعالى لما أخبر يقتل فلو لم يقتل لا نقلب علمه جهلاً وذلك محال {وَ} فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد {وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ} أي ليعاملكم من يختبر ما في قلوبكم من

الإخلاص والنفاق وليظهر ما فيها من السرائر وفي المثل المشهور لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين {وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ} أي يخلصها من الوساوس {وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} أي بما في القلوب من الخير والشر {إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ} أي انهزموا يوم أحد وهم عثمان بن عفان، ورافع بن المعلى وخارجة بن زيد {يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ} جمع محمد صلى الله عليه وسلم وجمع أبي سفيان {إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ} أي أزالهم الشيطان بوسوسته أن محمداً قتل {بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ} أي بشؤم بعض ما كسبوا من الذنوب بترك المركز وبالحرص على الغنيمة أو على الحياة {وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ} لتوبتهم واعتذارهم {إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ} لمن تاب {حَلِيمٌ} أي لا يعجل لهم بالعقوبة وأما الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين: أبو بكر وعلي وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام. وسبعة من الأنصار: الخباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحرث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي في نفس الأمر وهم المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه {وَقَالُواْ لإِخْوَٰنِهِمْ} أي لأجل إخوانهم في النسب أو في الكفر والنفاق {إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي ساروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا {أَوْ كَانُواْ غُزًّى} فقتلوا {لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا} أي مقيمين في المدينة {مَا مَاتُواْ} في سفرهم {وَمَا قُتِلُواْ} في غزواتهم {لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذٰلِكَ} أي ظنهم أن إخوانهم لو لم يسافروا ولم يحضروا القتال لعاشوا {حَسْرَةً} أي حزناً {فِى قُلُوبِهِمْ} واللام لام العاقبة أي أنهم قالوا ذلك لإعماء قلوب المسلمين ليضيق صدرهم وليتخلفوا عن القتال فلما كان المؤمنون لم يلتفتوا إلى قولهم فيضيع سعيهم، ويبطل كيدهم فتحصل الندامة في قلوبهم {وَٱللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد ومن قدر له الموت لم يبقَ وإن لم يجاهد فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الخوف، ويميت القاعد عن القتال والمقيم مع حيازتهما لأسباب السلامة {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

فيجازيهم على قولهم واعتقادهم ويجازيكم أن تماثلوهم في ذلك {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي في الجهاد {أَوْ مُتُّمْ} في سفركم للغزو مع الكفار أو في بيوتكم وكنتم مخلصين من النفاق {لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ} لذنوبكم {وَرَحْمَةٌ} منه لكم {خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} أي مما تجمعونه أنتم لو لم تموتوا من الأموال التي تعد خيرات.

وقرأ حفص عن عاصم بالغيبة أي خير مما يجمعه هؤلاء الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم. قال الفخر الرازي: والأصوب عندي أن اللام في «ولئن» للتأكيد فيكون المعنى إن وجب أن تموتوا أو تقتلوا في سفركم وغزوكم فكذلك يجب أن تفوزوا بالمغفرة والرحمة فلماذا تحترزون عن الموت والقتل بل ذلك مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون لأن الموت الذي يستحق الثواب العظيم كان خيراً من الموت

<ص: 127>

من غير فائدة {وَلَئِنْ مُّتُّمْ} في حضر أو سفر {أَوْ قُتِلْتُمْ} في الجهاد أو غيره {لإِلَى ٱلله تُحْشَرُونَ} فجميع العالمين يوفقون في عرصة القيامة وبساط العدل فيجتمع المظلوم مع الظالم والمقتول مع القاتل والله تعالى يحكم بين عبيده بالعدل.

واعلم أن الله تعالى رغب المجاهدين في الآية الأولى بالمغفرة والرحمة وفي هذه الآية بالحشر إلى الله زيادة في إعلاء الدرجات.

يروى «أن عيسى ابن مريم مر بأقوام نحفت أبدانهم واصفرت وجوههم ورأى عليهم آثار العبادة فقال: ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب الله، فقال: هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه. ثم مر بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا: نطلب الجنة والرحمة، فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته. ثم مر بقوم ورأى آثار العبودية عليهم أكثر فسألهم فقالوا: نعبده لأنه إلهنا ونحن عبيده لا لرغبة ولا لرهبة، فقال: أنتم العبيد المخلصون والمتعبدون المحقُّون». فقوله تعالى: {مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مّنَ ٱللَّهِ} إشارة إلى من يعبده خوفاً من عقابه. وقوله: {وَرَحْمَةً} إشارة إلى من يعبده لطلب ثوابه. وقوله

تعالى: {لإِلَى ٱلله تُحْشَرُونَ} إشارة إلى من يعبد الله لمجرد الربوبية وهذا أعلا المقامات وأبعد النهايات في العبودية في علو الدرجة، فهؤلاء الذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعة الله ومجاهدة عدوه يكون حشرهم إليه واستئناسهم بكرمه وتمتعهم بشروق نور ربوبيته {فَبِمَا رَحْمَةٍ} فما استفهام للتعجب تقديره فبأي رحمة {مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ} وذلك لأنه لما كانت جنايتهم عظيمة ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر تغليظاً في القول ألبتة علموا أن هذا لا يتأتى إلا بتأييد رباني فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد {وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً} باللسان {غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ} أي قاسية {لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} أي لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك ولو يسكنوا إليك ولو انفضوا من حولك فات المقصود من الرسالة {فَٱعْفُ عَنْهُمْ} فيما يتعلق بحقوقك {وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ} من الله تعالى فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماماً للشفقة عليهم وإكمالاً للبر بهم {وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلأَمْرِ} فإن المشاورة تقتضي شدة محبتهم له صلى الله عليه وسلم لأنها تدل على رفعة درجتهم فترك المشاورة معهم إهانة لهم قال صلى الله عليه وسلم: «ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم». {فَإِذَا عَزَمْتَ} عقب المشاورة على شيء {فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ} في إمضاء أمرك على ما هو أصلح وليس التوكل إهمال التدبير بالكلية وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للأمر بالتوكل بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول بقلبه على عصمة الله وإعانته {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ} عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم إلى ما فيه خير لهم وصلاح {إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ} أي إن ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم {وَإِن يَخْذُلْكُمْ} أي يترك الله نصرتكم كيوم أحد {فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ} أي فلا أحد ينصركم على عدوكم من بعد خذلانه تعالى {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} بالنصرة وغيرها {وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ}. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء وضم الغين، أي وما جاز لنبي أن يخون أمته في الغنائم.

قال الكلبي ومقاتل: نزلت هذه الآية حين ترك الرماة المركز يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخشى أن

يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر. فقال صلى الله عليه وسلم لهم: «ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟». فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً. فقال صلى الله عليه وسلم: «ظننتم أنا نغفل فلا نقسم لكم». فنزلت هذه الآية. وقرأ الباقون من السبعة «يغل» بضم الياء وفتح الغين أي وما جاز لنبي أن يخان لأن الوحي كان يأتيه حالاً فحالاً فمن خانه فربما نزل الوحي فيه فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا ولأن الخيانة في حقه صلى الله عليه وسلم أفحش لأنه أفضل البشر، ولأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا في غاية الفقر، كما روي

<ص: 128>
أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقعت في يده يوم حنين غنائم هوازن غل رجل بمخيط فنزلت هذه الآية {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ} أي يأت بالذي غله بعينه يحمله على عنقه {يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ ثُمَّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ} أي تعطى وافياً {مَّا كَسَبَتْ} أي جزاء ما عملت من الغلول وغيره {وَهُمْ}أي كل نفس {لاَ يُظْلَمُونَ} بزيادة عقاب أو بنقص ثواب لأنه تعالى عادل في حكمه {أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوٰنَ ٱللَّهِ} أي أمن اتقى فاتبع رضوان الله بالإيمان به والعمل بطاعته {كَمَن بَآءَ بِسَخْطٍ مِّنَ ٱللَّهِ} أي كمن استحق سخطاً من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته {وَمَأْوَاهُ} أي الغال أو من استوجب سخط الله {جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ} جهنم {هُمْ دَرَجٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ} أي الفريقان مختلفون في درجات الثواب والعقاب في حكم الله وعلمه باختلاف مراتب الطاعات والمعاصي {وٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} أي بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم بحسبها {لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤمِنِينَ} أي لقد أحسن إليهم {إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي بعث آدمياً ولد في بلدهم ونشأ فيما بينهم وهم كانوا عارفين بأحواله من أول العمر إلى آخره أنه ملازم الصدق والأمانة وهو صار شرفاً للعرب وفخراً لهم، وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه اليهود والنصارى والعرب، ثم إن اليهود يفتخرون بموسى والتوراة والنصارى يفتخرون بعيسى والإنجيل فما كان للعرب ما يقابل ذلك

فلما بعث الله محمداً وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف جميع الأمم. فهذا وجه الفائدة في قوله تعالى من أنفسهم: {يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايٰتِهِ} أي القرآن. أي يبلغ الوحي من عند الله إلى الخلق بالأمر والنهي {وَيُزَكِّيهِمْ} أي يطهرهم بالتوحيد من الشرك وبأخذ الزكاة من الذنوب ويكمل نظرهم بحصول المعارف الإلهية {وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتٰبَ} أي ظواهر الشريعة أو يعرفهم التأويل {وَ ٱلْحِكْمَةَ} أي محاسن الشريعة وأسرارها وعللها {وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ} أي والحال أنهم كانوا من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم {لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أو المعنى وما كانوا من قبل مجيء محمد والقرآن إلا في ضلال بيِّن وذلك لأن دين العرب قبل ذلك كان أرذل الأديان وهو عبادة الأوثان وأخلاقهم أرذل الأخلاق وهو الغارة والنهب، والقتل وأكل الأطعمة الرديئة ثم لما بعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إليهم انتقلوا ببركته من تلك الدرجة التي هي أخس الدرجات إلى أحسنها، وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة وعدم الإلتفات إلى الدنيا وطيباتها ولا شك أن هذا أعظم المنة. {أَوَ لَمَّا أَصَٰبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا} أي أقلتم متعجبين من أين أصابنا هذا ونحن ننصر الإسلام الذي هو دين الحق ومعنا الرسول وهم ينصرون دين الشرك بالله فكيف صاروا منصورين علينا وقد تقدم الوعد بالنصر حين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل. وذلك لأن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين، وقتل المسلمون منهم يوم بدر سبعين وأسروا سبعين. والأسير في حكم المقتول لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد. {قُلْ هُوَ} أي حصول هذا الأمر {مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} أي بشؤم معصيتكم بترككم المركز وحرصكم على الغنيمة {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ} فإنه قادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم كما هو قادر على التخلية بينكم وبين عدوكم إذا خالفتم وعصيتم {وَمَآ أَصَٰبَكُمْ} في أحد من القتل والجراحة {يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ} جمع محمد وجمع أبي سفيان {فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي فهو بقضائه وإرادته {وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ}

<ص: 129>
أي وليظهر الله للناس الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق والامتناع من الجهاد مع وجود الطلب. وهم عبد الله بن أبي وأصحابه حيث رجعوا يوم أحد إلى المدينة قال لهم عبد الله بن جبير أو عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله الأنصاري : أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو {تَعَالَوْاْ} إلى أحد {قَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ} أي كونوا إما من رجال الدين وإما من رجال الدنيا فإن كان في قلبكم حب الدين والإسلام فقاتلوا لهما في طاعة الله، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم وبلدكم. {قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً} أي لو نحسن قتالاً ونقدر عليه {لاَّتَّبَعْنَٰكُمْ} إلى أحد {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَٰنِ} أي هم للكفر يوم إذ قالوا ما قالوا أقرب منهم للإيمان، فإنهم كانوا قبل هذه الواقعة يظهرون الإيمان من أنفسهم وما ظهرت منهم أمارة تدل على كفرهم، فلما رجعوا عن عسكر المسلمين تباعدوا بذلك عن أن يظن بهم كونهم مؤمنين وأيضاً قولهم ذلك يدل على كفرهم لأنه إما على السخرية بالمسلمين، وإما على عدم الوثوق بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم وكل واحد منهما كفر. {يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ} فإنهم أظهروا أمرين ليس في قلوبهم واحد منهما. أحدهما: عدم العلم بالقتال. والآخر: الاتباع على تقدير العلم به. وقد كذبوا فيهما فإنهم عالمون بالقتال غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين على الانخزال عازمين على الارتداد. {وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} أي يعلم من تفاصيل تلك الأحوال ما لا يعلمه غيره { ٱلَّذِينَ قَالُواْ} أي الذين نافقوا، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه {لإِخْوَٰنِهِمْ} أي لأجل إخوانهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو أقاربهم {وَ} قد {وَقَعَدُواْ} عن القتال بالانخزال: {لَوْ أَطَاعُونَا} أي فيما أمرناهم به ووافقونا في ذلك {مَا قُتِلُواْ} كما لا نقتل {قُلْ} للمنافقين {فَادْرَءُواْ} أي ادفعوا {عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في أن القعود ينجي منه.

وروي أنه أنزل الله بهم الموت، فمات منهم يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً من غير قتال ومن غير

خروج لإظهار كذبهم {وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوٰتاً} نزلت هذه الآية في حق قتلى أُحُد وكانوا سبعين رجلاً: أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وشماس بن عثمان، وعبد الله بن جحش، وباقيهم من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأما شهداء بدر فنزلت فيهم آية البقرة ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله الآية {بَلْ} هم {أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} التحف من الجنة.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في صفة الشهداء إن أرواحهم في أجواف طير خضر وأنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتسرح حيث شاءت وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش. وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أبشرك أن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله». ثم قال: «ما تريد يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟» فقال: يا رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى. {فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ} وهو شرف الشهادة والقرب من الله والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي أن الشهداء يقول بعضهم لبعض تركنا إخواننا فلاناً وفلاناً في صف المقاتلة مع الكفار فيقتلون إن شاء الله، فيصيبون من الرزق والكرامة ما أصبنا. أي يفرحون بحسن حال إخوانهم الذين تركوهم في الدنيا بدوام انتفاء الخوف والحزن وبلحوقهم بهم لأن الله بشرهم بذلك {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ} أي بثواب أعمالهم من الله {وَفَضْلٍ} أي زيادة عظيمة من الكرامة {وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} من الشهداء وغيرهم {ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ

<ص: 130>

مِن بَعْدِ مَآ أَصَٰبَهُمُ ٱلْقَرْحُ} في أُحُد. منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والزبير وسعد وطلحة وابن عوف وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح وجابر بن عبد الله {لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ} في طاعة الرسول في

ذلك الوقت {وَٱتَّقَوْاْ} في التخلف عن الرسول {أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

روي أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وقالوا: إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فلِمَ تركناهمْ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم. فهموا بالرجوع، فبلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة. فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان وقال: «لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال بالأمس» فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع قوم من أصحابه قيل: كانوا سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال على يسار الطريق لمن أراد ذا الحليفة، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت هذه الآية: {ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ} وهو أعرابي من خزاعة أو جماعة راكبون من عبد القيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي {إِنَّ ٱلنَّاسَ} أي أبا سفيان وأصحابه {قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} في اللَطيمة وهي سوق في قرب مكة {فَٱخْشَوْهُمْ} بالخروج إليهم. روي أن أبا سفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكة نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر إن شئت. فقال صلى الله عليه وسلم لعمر: «قل بيننا وبينك ذلك إن شاء الله تعالى». فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع، فمر به ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوا المسلمين، وقيل: لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فقال: يا نعيم إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جدب وقد بدا لي أن أرجع، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فقال لهم: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبا سفيان بموسم بدر أن نقتتل فيها، فقال لهم: ما هذا بالرأيْ أتوكم في دياركم وقتلوا أكثركم، فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد. فوقع

هذا الكلام في قلوب بعضهم فكره الخروج. فلما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قال: «والذي نفس محمد بيده لأخرجن إليهم ولو لم يخرج معي أحد» . فخرج في سبعين راكباً، وباقي الجماعة يمشون وفيهم ابن مسعود فذهبوا وكلهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل. إلى أن وصلوا إلى بدر وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أبا سفيان ثمان ليال ولم يلق أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وباعوا ما كان معهم من التجارات واشتروا أدماً وزبيباً بحوافي الدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى: {فَزَادَهُمْ إِيمَٰناً} أي زادهم هذا الكلام المخوف جراءة بالخروج إليهم وعزماً متأكداً على محاربة الكفار وعلى طاعة الرسول {وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ} أي كافينا الله وثقتنا به {وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ} أي الكفيل بالنصرة والكافي {فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ} أي فخرجوا إلى بدر فرجعوا من بدر ملتبسين بسلامة وثواب من الله {وَفَضْلٍ} أي ربح في التجارة {لَّمْ يَمْسَسْهُمْ} أي لم يصبهم في الذهاب والمجيء {سُوۤءٌ} أي قتل ولا جراح {وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ} في طاعة رسوله {وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} يدفع العدو عنهم ويعطيهم ثواب الغزو ويرضى عنهم {إِنَّمَا ذٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}.

قرأ ابن عباس وابن مسعود «يخوفكم أولياءه». وقرأ أبي بن كعب «يخوفكم بأوليائه»، أي ذلكم المثبط الشيطان يحوفكم أيها المؤمنون المشركين أبا سفيان وأصحابه.

وقال الحسن والسدي:

<ص: 131>

معنى هذه الآية الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويختارون أمره وهم المنافقون ليقعدوا عن قتال المشركين. فأما أولياء الله فإنهم لا يخافون الكفار إذا خوَّفهم الشيطان ولا ينقادون لأمره {فَلاَ تَخَافُوهُمْ} أي أولياء الشيطان بالخروج إليهم {وَخَافُونِ} في مخالفة أمري بالجلوس {إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} فإن الإيمان يقتضي تقديم خوف الله على خوف الناس ويستلزم عدم الخوف من

شر الشيطان وأوليائه {وَلاَ يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ}.

قرأ نافع «يحزنك» بضم الياء وكسر الزاي في جميع ما في القرآن إلا قوله تعالى {تَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلاْكْبَرُ}(الآية:) في سورة الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاي كباقي القراء في جميع ما في القرآن {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً}. اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية فقيل: إنها نزلت في شأن كفار قريش والله تعالى جعل رسوله آمناً من شرهم. والمعنى لا يحزنك من يسارع في الكفر بنصرته بأن يقصد جمع العساكر بمحاربتك وإبطال هذا الدين وإزالة هذه الشريعة. وهذا المقصود لا يحصل لهم بل يضمحل أمرهم وتزول شوكتهم ويعظم أمرك ويعلو شأنك فإنهم لن يضروا الله شيئاً بهذا الصنيع وإنما يضرون أنفسهم. وقيل: نزلت في شأن المنافقين إنهم كانوا يخوفون المؤمنين بسبب وقعة أحُد ويؤسونهم من النصر والظفر. وقيل: نزلت في شأن رؤساء اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم لمتاع الدنيا{يُرِيدُ ٱللَّهُ} بذلك {أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً} من الثواب {فِى ٱلاٰخِرَةِ} أي الجنة {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} في النار {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

قال ابن عباس: هم المنافقون اختاروا الكفر على الإيمان فإنهم متى كانوا مع المؤمنين أظهروا الإيمان، فإذا خلوا إلى شيطانهم كفروا وتركوا الإيمان فكان ذلك كأنهم اشتروا الكفر بالإيمان. ويمكن حمل هذه الآية على اليهود، ومعنى اشتراء الكفر بالإيمان منهم أنهم كانوا يعرفون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويؤمنون به قبل مبعثه، ويستنصرون به على أعدائهم فلما بعث كفروا به وتركوا ما كانوا عليه فكأنهم أعطوا الإيمان وأخذوا الكفر بدلاً عنه كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً عنه {وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ} أي نمهل لهم بتطويل الأعمار {خَيْرٌ لاَّنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً} أي ذنباً في الدنيا ودركات في الآخرة {وَلَهُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} يهانون به يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة.

قال الفخر الرازي: بيّن الله تعالى في هذه الآية أن بقاء هؤلاء المتخلفين عن القتال ليس خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا في أُحُد لأن هذا البقاء صار وسيلة إلى الخزي في الدنيا والعقاب الدائم في القيامة. وقتل أولئك الذين قتلوا في أحد صار وسيلة إلى الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة فترغيب أولئك المثبطين في مثل هذه الحياة وتنفيرهم عن مثل ذلك القتل لا يقبله إلا جاهل.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو في الأربعة: «ولا تحسبن الذين كفروا»، ولا تحسبن الذين يبخلون، لا تحسبن الذين يفرحون ف«لا تحسبنهم» بالتاء وضم الباء في قوله تعالى: «تحسبنهم».

وقرأ نافع وابن عامر بالياء إلا قوله: «فلا تحسبنهم» فإنه بالتاء. وقراءة حمزة كلها بالتاء. وقيل: نزلت الآية من قوله: {وَلاَ يَحْزُنكَ} إلى ههنا في حق مشركي أهل مكة يوم أحد.{مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي ليترك المخلصين {عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ} أيها الناس من اختلاط المنافقين بالمخلصين وإظهارهم أنهم من أهل الإيمان {حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ} أي المنافق {مِنَ ٱلطَّيِّبِ} أي المؤمن بإلقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة، فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وكفره أو بالقرائن فإن المسلمين كانوا يفرحون بنصرة الإسلام وقوته والمنافقين كانوا يغتمون بذلك {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ} أي

<ص: 132>

إن عادة الله جارية بأنه لا يطلع عوام الناس على غيبه بل لا سبيل لكم إلى معرفة ذلك الامتياز إلا بالامتحانات من التكاليف الشاقة كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله فأما معرفة ذلك على سبيل الاطلاع على الغيب فهو من خواص الأنبياء فلهذا قال تعالى: {وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ} فخصَّهم بإعلامهم أن هذا مؤمن وهذا منافق، أو المعنى فيمتحن خلقه بالشرائع على أيديهم حتى يتميز الفريقان بالامتحان. أو المعنى وما كان الله ليجعلكم كلكم عالمين بالغيب من حيث يعلم الرسول حتى تصيروا

مستغنين عن الرسول بل الله يخص من يشاء من عباده بالرسالة، ثم يكلف الباقين طاعة هؤلاء الرسل {فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ} أي لما طعن المنافقون في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بوقوع الحوادث المكروهة في أحد بين الله تعالى أنه كان فيها مصالح منها تمييز الخبيث من الطيب، ولم يبق بعد جواب هذه الشبهة إلا أن تؤمنوا بالله ورسله {وَإِن تُؤْمِنُواْ} حق الإيمان {وَتَتَّقُواْ} أي الكفر والنفاق {فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} أي ثواب وافر في الجنة {وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ} أي لا يتوهمن هؤلاء البخلاء ببذل المال في الجهاد أن بخلهم هوخير لهم بل هو شرّ لهم لأنه يبقى عقاب بخلهم عليهم {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي سيجعل ذلك المال طوقاً من النار في عنقهم. وقيل: إن المراد البخل بالعلم وذلك لأن اليهود كانوا يكتمون نعت محمد صلى الله عليه وسلم فكان ذلك الكتمان بخلاً فحينئذ كان معنى سيطوقون أن الله تعالى يجعل في رقابهم طوقاً من نار. قال صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة». والمعنى أنهم عوقبوا في أفواههم وألسنتهم بهذا اللجام لأنهم لم ينطقوا بأفواههم وألسنتهم بما يدل على الحق. {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي له تعالى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ} من البخل والسخاء {خَبِيرٌ} فيجازيكم عليه أو فيجازيهم عليه. {لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ} أي فنحاص بن عازوراء كما قاله ابن عباس والسدي أو حيي بن أخطب كما قاله قتادة أو كعب بن الأشرف كما نقله ابن عساكر.

روي أنه صلى الله عليه وسلم كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حتى سألنا القرض. فلطمه أبو بكر في وجهه وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله فنزلت هذه الآية تصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه والجمع حينئذ مع كون القائل واحداً لرضا

الباقين بـذلك: {إِنَّ ٱللَّـهَ فَقِيـرٌ} محتـاج يطلـب منـا القـرض {وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ} ولا نحتاج إلى قرضه {سَنَكْتُبُ مَا قَـالُواْ} أي من العظيمة الشنعاء في صحائف الحفظة ليقرأوا ذلك يـوم القيامة أو سنحفظه ونثبته فـي علمنـا لا ننسـاه ولا نهملـه، أو المراد سنكتب عنهم هذا الجهل في القـرآن حـتى يعلـم الخلـق إلـى يـوم القيامـة شـدة جهلهـم وطعنهـم فـي نبـوة محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما قـدروا عليـه {وَقَتْلَهُـمُ ٱلأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} فـي اعتقـادهم كمـا فـي نفـس الأمـر أي نكتـب عليهـم رضـاهم بقتـل آبـائهم الأنبيـاء بغيـر جـرم. أو المعنـى سـنحفظ عــن الفريقيــن معــاً أقــوالهم وأفعــالهم {وَنَقُولُ} عند الموت أو عند الحشر أو عنـد قـراءة الكتـاب أو عند الإلقاء في النار ويحتمل أن يكون هذا القـول كنايـة عن حصول الوعيد، وإن لم يكن هناك قول.

وقرأ حمزة «سيكتب» بالياء وضمها على لفظ ما لم يسم فاعله وقتلهم برفع اللام ويقول بالياء. والباقون بـالنون ونصب اللام مـن قتلهـم. وقـرأ الحسـن والأعـرج «سـيكتب» بالياء وبالبناء للفاعل {ذُوقُـواْ عَـذَابَ ٱلْحَرِيـقِ} أي المحـرق {ذٰلِكَ} أي العذاب المحرق {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ} أي بسـبب ما اقترفتموه من التفوه بتلك العظيمة وغيره من المعاصي {وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيـدِ} أي والأمـر أنـه تعـالى ليـس بمعذب لعبيده بغير

<ص: 133>

ذنب من قبلهم. {ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ} نصب على الذم أو جـر نعتـاً لـ«الَّذين» الأول. أي لقد سمع الله قول الذين قالوا.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حق كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا، وزيد بن التابوت، وفنحاص بن عـازوراء، وحيـي بـن أخطـب وغيرهم، أتوا رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فقـالوا: يـا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعـالى أنـزل عليـك كتابـاً وقد عهد الله إلينا فـي التـوراة أن لا نـؤمن لرسـول حـتى يأتينا بقربان تأكله النار ويكـون لهـا دوي خفيـف تنـزل مـن السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية: {إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا} أي أمرنا في الكتاب {أَلاَّ نُـؤْمِنَ لِرَسُـولٍ} أي لا نصدق أحداً بالرسالة {حَتَّـىٰ يَأْتِيَنَـا بِقُرْبَـانٍ تَـأْكُلُهُ ٱلنَّـارُ} مـا

كان عليه أمر أنبياء بني إسرائيل حيث كان يقرب بالقربان من النعم أو من الصدقات غير الحيوان فيقوم النبي في البيت ويناجي ربه وبنو إسرائيل واقفون حول البيت، فتنزل نار بيضاء أي لا دخان لها ولها دوي، فتأكل القربان أي تحرقه وهذا من أباطيلهم فإن أكل النار القربان لم يجب الإيمان إلا لكونه معجزة، فهو وسائر المعجزات سواء. وقد تقدمت المعجزات الكثيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم وطلبهم لهذا المعجز وقع على سبيل التعنت لا على سبيل الاسترشاد ولذلك رد الله عليهم بقوله: {قُلْ} يا أشرف الخلق {قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِـ لْبَيِّنَٰتِ} أي بالمعجزات الواضحة {وَبِـ لَّذِى قُلْتُمْ} وهو القربان الذي تأكله النار {فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في مقالتكم إنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه فإن زكريا ويحيى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام قد جاءوكم بما قلتم في معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم {فَإِن كَذَّبُوكَ} في أصل النبوة والشريعة فتسل {فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُوا بِـ لْبَيِّنَٰتِ} أي المعجزات {وَ ٱلزُّبُرِ} أي الصحف كصحف إبراهيم وموسى {وَ لْكِتَٰبِ لْمُنِيرِ} أي الواضح وهو التوراة والإنجيل والزبور.

وقرأ ابن عامر «بالزبر» بإعادة الباء كقراءة ابن عباس دلالة على المغايرة. وقرأ هشام «وبالكتاب» بإعادة الباء. والباقون بغير الباء فيهما {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ لْمَوْتِ} أي كل حيوان حاضر في دار التكليف يذوق الموت. وروي عن الحسن أنه قرأ «ذائقة الموت» بالتنوين ونصب الموت. وقرأ الأعمش بطرح التنوين مع نصب «الموت». {وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ لْقِيَٰمَةِ} أي وإنما تعطون أجزية أعمالكم على التمام يوم قيامكم من القبور. وفي لفظ التوفية إشارة إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبله كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» {فَمَن زُحْزِحَ} أي أبعد {عَنِ ٱلنَّارِ} بالتوحيد والعمل الصالح {وَأُدْخِلَ لْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} أي نال غاية مقصوده. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «من أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه».{وَما لْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلاَّ مَتَٰعُ لْغُرُورِ} أي ليس ما في

الدنيا من النعيم إلا كمتاع البيت في بقائه مثل الخزف والزجاجة وغير ذلك أي إن العيش في هذه الدنيا يغر الإنسان بما يمنيه من طول البقاء وسينقطع عن قريب فوصفت بأنها متاع الغرور لأنها تغر ببذل المحبوب، وتخيل للإنسان أنه يدوم وليس بدائم. قال بعضهم: الدنيا ظاهرها مطيّة السرور وباطنها مطية الشرور. قال سعيد بن جبير: إن هذا في حق من آثر الدنيا على الآخرة وأما من طلب الآخرة بها فإنها نعم المتاع {لَتُبْلَوُنَّ فِيۤ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} أي والله لتختبرن في ذهاب أموالكم بالمهلكات كالغرق والحرق وبالتكاليف كالزكاة والجهاد، وفي ما يصيب أنفسكم من البلايا كالأمراض والأوجاع والقتل والضرب ومن التكاليف كالصلاة والجهاد والصبر فيهما. {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوۤاْ أَذًى كَثِيراً} أي ولتسمعن من اليهود والنصارى ومشركي العرب: أنواع الإيذاء من

<ص: 134>
الطعن في الدين الحنيف، والقدح في أحكام الشرع الشريف، وصدّ من أراد أن يؤمن، وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الأشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتشبيب نسائهم، وتحريض المشركين على مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه. {وَإِن تَصْبِرُواْ} على تلك البلوى وأذى الكفار وتستعملوا احتمال المكروه ومداراة الكفار في كثير من الأحوال {وَتَتَّقُواْ} أي تحترزوا عما لا ينبغي وعن المداهنة مع الكفار وعن السكوت عن إظهار الإنكار {فَإِنَّ ذٰلِكَ} أي الصبر والتقوى {مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ} أي من حزم أمور المؤمنين وخيرها ومن صواب التدبير. أو المعنى فإن ذلك مما قد عزم عليكم فيه أي ألزمتم الأخذ به ومما يجب أن يعزم عليه كل أحد لأنه حميد العاقبة.{وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} أي واذكر وقت أخذه تعالى العهد على علماء اليهود والنصارى لتذكرن الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل وللناس، ولا تلقوا فيها التأويلات الفاسدة والباطلة.

قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو بالغيبة في الفعلين. والباقون بالخطاب فيهما. {فَنَبَذُوهُ} أي طرحوا الميثاق {وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ} أي فلم يعملوا به {وَ شْلَتَرَوْاْ بِهِ} أي الكتاب {ثَمَناً قَلِيلاً} أي شيئاً تافهاً من الدنيا أي أخفوا الحق ليتوسلوا به إلى وجدان شيء من الدنيا {فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} أي بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن فكل من لم يبين الذي للناس وكتم شيئاً منه لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب قلوبهم أو لجر منفعة أو لخوف، أو لبخل للعلم دخل تحت هذا الوعيد. قال صلى الله عليه وسلم: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار». وعن محمد بن كعب قال: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وكان قتادة يقول: طوبى لعالم ناطق ولمستمع واع هذا علم علماً فبذله وهذا سمع خيراً فوعاه. {لاَ تَحْسَبَنَّ لَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ} أي بما فعلوا من تحريف نصوص التوراة وتفسيرها بتفسيرات باطلة {وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} أي يحبون أن يوصفوا بالدين والفضل والعفاف والصدق. {فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ} أي بمباعدة {مِّنَ لْعَذَابِ}.}.

وقيل: نزلت هذه الآية في شأن المنافقين فإنهم يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين على سبيل النفاق من حيث إنهم كانوا يتوصلون بذلك إلى تحصيل مصالحهم في الدنيا، ثم كانوا يتوقعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يحمدهم على الإيمان الذي لم يكن موجوداً في قلوبهم. ولا شك أن هذه الآية واردة في الكفار والمنافقين الذين أمر الله رسوله بالصبر على أذاهم فإن أكثر المنافقين كانوا من اليهود. والأولى إجراء الموصول على العموم فيشتمل على كل من يأتي بشيء من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من سداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على طاعة الله.

وقرأ حمزة وعاصم والكسائي تحسبن وتحسبنهم بالتاء الفوقية وكلاهما بفتح الباء، والتقدير لا تحسبن يا محمد أو أيها السامع أو كلاهما بضم الباء، والخطاب للمؤمنين والمفعول الأول: «الذين يفرحون»، والثاني:

«بمفازة». وقوله تعالى: {فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ} تأكيد والفاء مقحمة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالياء التحتية، وكلاهما بفتح الباء، والفاعل للرسول وبضمها والفاعل من يتأتى منه الحسبان أو بفتح الباء في الأول وضمها في الثاني وهو قراءة أبي عمرو، والفاعل هو الموصول والمفعول الأول محذوف، والتقدير ولا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم بمفازة من العذاب. ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معاً اختصاراً لدلالة مفعولي الفعل الثاني عليهما. أي لا يحسبن هؤلاء أنفسهم فائزين أو على أن الفعل الأول مسند للرسول أو لكل حاسب ومفعوله الأول الموصول والثاني محذوف مفعول الفعل الثاني عليه، والفعل الثاني مسند إلى ضمير الموصول، والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه صلى الله عليه وسلم

<ص: 135>
ومفعولاه ما بعده {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي وجيع في الآخرة {وَللَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي له تعالى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، تعذيباً وإثابة، وهو تعالى يملك ما فيهما من خزائن المطر والنبات والرزق {وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} فلا يشذ من ملكوته شيء من الأشياء وكل ما سواه تعالى مقدور له تعالى. {إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي في إنشائهما على ما هما عليه في ذواتهما وصفاتهما {وَ ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ} أي في تعاقبهما في وجه الأرض وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها. الناشئين من حركات السمٰوات وسكون الأرض أو في تفاوتهما بازدياد وانتقاص باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة أو في اختلافهما بحسب الأمكنة {لاٰيٰتٍ} كثيرة عظيمة دالة على وحدانيته تعالى وقدرته تعالى {لاِّوْلِى ٱلأَلْبَٰبِ} أي لذوي العقول. المتفكرين في بدائع صنائع الملك الخلاق. المتدبرين في حكمه المودعة في الأنفس والآفاق. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل مستلق على فراشه، إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء وقال: أشهد أن

لك رباً وخالقاً اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له» . وقال : «لا عبادة كالتفكر». وحكي أن الرجل من بني إسرائيل كان إذا عَبَدَ الله ثلاثين سنة أظلته سحابة، فعبد في تلك المدة فتىً من فتيانهم فما أظلته سحابة، فقالت له أمه: لعل فرطة صدرت منك في مدتك. فقال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبرْ قال: نعم، قالت: فما أتيت إلا من ذلك. { ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} أي الذين لا يغفلون عن الله تعالى في جميع أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره تعالى، واستغراق سرائرهم في مراقبته لما أيقنوا بأن كل ما سواه فائض منه وعائد إليه فلا يشاهدون حالاً من الأحوال في أنفسهم ولا في الآفاق إلا وهم يعاينون في ذلك شأناً من شؤونه تعالى. فالمراد ذكره تعالى مطلقاً سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والأفعال وسواء قارنه الذكر اللساني أولاً. وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لأنها الأحوال المعتادة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً. والمراد تعميم الذكر للأوقات. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله» {وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} وعلى وفق هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق» أي لأن الاستدلال بالخلق على الخالق لا يمكن وقوعه على نعت المماثلة، وإنما يمكن وقوعه على نعت المخالفة. فإذاً نستدل بحدوث هذه المحسوسات على قدم خالقها وبكميتها وكيفيتها وشكلها على براءة خالقها عن الكمية والكيفية والشكل. وقوله صلى الله عليه وسلم: «من عرف نفسه عرف ربه». معناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالإمكان عرف ربه بالوجوب، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء. فكان التفكر في الخالق ممكناً من هذا الوجه، أما التفكر في الخالق فهو غير ممكن ألبتة فإذاً لا تتصور حقيقته إلا بالسلوب فنقول: إنه ليس بجوهر ولا عرض ولا مركب ولا في الجهة. ولا شك أن حقيقته المخصوصة مغايرة لهذه السلوب، وتلك الحقيقة المخصوصة لا سبيل للعقل إلى معرفتها فيصير العقل كالواله فلهذا السبب نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن

التفكر في الله وأمر بالتفكر في المخلوقات. فلهذه الدقيقة أمر الله في هذه الآية بذكره ولم يأمر بالتفكر فيه بل أمر بالتفكر في مخلوقاته.
قال بعض العلماء: «الفكرة تذهب الغفلة وتجلب للقلب الخشية كما ينبت الماء الزرع». وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا تفضلوني على يونس بن متَّى فإنه كان يرفع كل يوم مثل عمل أهل الأرض». أي وذلك لأن عمله هو التفكر في معرفة الله لأنه لا يقدر أحد أن يعمل بجوارحه مثل ما عمل أهل الأرض، وإنما هو عمل القلب.
واعلم أن دلائل التوحيد محصورة في قسمين:

<ص: 136>
دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس. ولا شك أن دلائل الآفاق أعظم وأعجب فلو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى في تلك الورقة عرقاً واحداً ممتداً في وسطها، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين، ثم يتشعب منها عروق دقيقة ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصر وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حِكماً بالغة وأسراراً عجيبة، ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة الورقة لعجز. فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة، فإذا قاس تلك الورقة إلى السمٰوات مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن، والنبات والحيوان عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء كالعدم، فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير عرف أنه لا سبيل له إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله تعالى في خلق السمٰوات والأرض. وإذا عرف بهذا البرهان قصور عقله لم يبقَ معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجلَّ من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين بل يسلم أن في كل ما خلقه الله تعالى حِكَماً بالغة وأسرار عظيمة ولا سبيل له إلى معرفتها فعند هذا يقول: {رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا} أي المخلوق العجيب {بٰطِلاً} أي بغير حكمة بل خلقته بحكمة عظيمة وهي أن تجعلها مساكن للمكلفين الذين اشتغلوا

بطاعتك وتحرزوا عن معصيتك ومداراً لمعايش العباد ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد {سُبْحَٰنَكَ} وهذا إقرار بعجز العقول عن الإحاطة بآثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض أي إن الخلق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة لم يعرفوا منها إلا هذا القدر. وهو أن خالقها ما خلقها باطلاً بل خلقها لحكم عجيبة وأسرار عظيمة وإن كانت العقول قاصرة عن معرفتها {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} أي ادفع عنا عذاب النار لأنه جزاء من عصى ولم يطع. اعلم أنه تعالى لما حكى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى وأبدانهم في طاعة الله وقلوبهم في التفكر في دلائل عظمة الله ذكر أنهم مع هذه الطاعة يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار لأنه يجوز على الله تعذيبهم لأنه لا يقبح من الله شيء أصلاً {رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} أي أهنته {وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ} أي الكافرين {مِنْ أَنْصَارٍ} يمنعونهم من عذاب الله تعالى {رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ} أي سمعنا نداء منادٍ وهو كما قال محمد بن كعب القرآن المجيد يدعو الناس إلى الإيمان أي آمنوا بمتولي أموركم. {فَأَامَنَّا} أي فامتثلنا أمره وأجبنا نداءه {رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي كبائرنا {وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَٰتِنَا} أي صغائرنا. وقيل: المراد بالأول ما يزول بالتوبة، وبالثاني ما تكفره الطاعة العظيمة. وقيل: المراد بالأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصية، وبالثاني ما أتى به الإنسان مع جهله بذلك {وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلأَبْرَارِ} أي على مثل أعمالهم لنكون في درجاتهم يوم القيامة. أو المعنى توفنا على الإيمان، واجمعنا مع أرواح النبيين والصالحين {رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ} والجار والمجرور متعلق بوعدتنا أي وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أي وعدتنا وعداً كائناً على ألسنة رسلك. وقيل: والمعنى وفقنا للأعمال التي نصير بها أهلاً لوعدك من الثواب، واعصمنا من الأعمال التي نصير بها أهلاً للعقاب والخزي {وَلاَ تُخْزِنَا} أي لا تفضحنا {يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ} وهذا يدل على أن المقتضى لحصول منافع الآخرة هو الوعد لا الاستحقاق وفي الآثار عن جعفر الصادق من حزبه أمر فقال: ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف

وأعطاه ما أراد واستدلّ بهذه الآية. {فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} فيما سألوه من غفران الذنوب وإعطاء الثواب. {أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ} وقرأ الجمهور بفتح الهمزة. وقرأ أبي بأني بالباء التي للسببية. وقرأ عيسى بن عمر بكسر الهمزة. والمعنى أني لا أبطل ثواب عمل

<ص: 137>
عامل منكم. والمراد حصلت إجابة دعائكم في كل ما طلبتموه {مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ} فلا تفاوت في الإجابة وفي الثواب بين الذكر والأنثى إذا كانا في التمسك بالطاعة على السوية {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} أي بعضكم كبعض في الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية {فَٱلَّذِينَ هَٰجَرُواْ} أي اختاروا المهاجرة من أوطانهم في خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم {وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ} أي ألجأهم الكفار إلى الخروج من منازلهم التي ولدوا فيها {وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى} أي بسبب طاعتي ومن أجل ديني {وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ}. قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو «وقاتلوا» بالألف، «وقتلوا» مخففة. والمعنى قاتلوا العدو معه صلى الله عليه وسلم حتى قتلوا في الجهاد. وقرأ ابن كثير وابن عامر «وقاتلوا» بالألف، «وقتلوا» مشددة لتكرر القتل فيهم. وقيل: معناه قطعوا. وقرأ حمزة والكسائي «وقتلوا» بغير ألف أولاً، «وقاتلوا» بالألف ثانياً، أي وقد قاتلوا. {لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَٰتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ ثَوَاباً مِّن عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ} أي إن الله تعالى وعد من فعل ذلك بأمور ثلاثة:

أولها: محو السيئات وغفران الذنوب. وذلك هو الذي طلبوه بقولهم فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا.

وثانيها: إعطاء الثواب العظيم وهو دخول الجنان وهو الذي طلبوه بقولهم وآتنا ما وعدتنا على رسلك.

وثالثها: كون الثواب مقروناً بالتعظيم وهو المشار إليه بقوله تعالى: {مِنْ عِندِ ٱللَّهِ} وهو الذي طلبوه بقولهم: ولا تخزنا يوم القيامة. وقوله تعالى: {ثَوَاباً} مصدر مؤكد لمعنى ما قبله لأن معنى مجموع قوله تعالى: {لاكَفّرَنَّ} {وَلاَدْخِلَنَّهُمْ} لأثيبنهم. فكأنه قيل: لأثيبنهم إثابة من عند الله. وقوله تعالى: {وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ} تأكيد لكون الثواب في غاية الشرف.

روي أن أم سلمة قالت يا رسول الله: إني لم أسمع ذكر النساء في الهجرة فنزل قوله تعالى: {فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} إلى هنا ولما

قال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن في الجهد نزل قوله تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـدِ} أي لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط في المكاسب والمتاجر والمزارع {مَتَٰعٌ قَلِيلٌ} أي الذي ترى من الخير منفعة يسيرة في الدنيا لا قدر لها في مقابلة ما أعد الله للمؤمنين من الثواب قال صلى الله عليه وسلم: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع» رواه مسلم. {ثُمَّ مَأْوَاهُمْ} أي مصيرهم {جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ} أي بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم {لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ} من الشرك والمعاصي وإن أخذوا في التجارة {لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا} فلا يضرهم ذلك لكسب {نُزُلاً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ} أي حال كون الجنات عطاء وإكراماً من الله لهم كما تعد الضيافة للضيف إكراماً {وَمَا عِندَ ٱللَّهِ} من الثواب الدائم {خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} أي للموحدين مما يتقلب فيه الفجار في الدنيا من المتاع القليل السريع الزوال {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ} أي القرآن {وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ} أي التوراة والإنجيل.

قال ابن عباس وجابر وقتادة نزلت هذه الآية في شأن أضحمة النجاشي حين مات وأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم بموته فقال النبيّ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم» فخرج إلى البقيع وكشف الله له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي فصلى عليه، واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه. وقال ابن جريج وابن زيد: نزلت في حق عبد الله بن سلام وأصحابه.

وقال عطاء: نزلت في حق أربعين رجلاً من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأسلموا. وقال مجاهد: نزلت في حق مؤمني أهل الكتاب كلهم {خَٰشِعِينَ للَّهِ} أي متواضعين لله في الطاعة {لاَ يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً} أي لا يكتمون أمر الرسول ونعته كما يفعله غيرهم من

<ص: 138>

أهل الكتاب لغرض المأكلة والرياسة {أُوْلَٰئِكَ} أي المتصفون بصفات حميدة {لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} في الجنة {إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ} أي سريع لإيصال الأجر الموعود إليهم من غير حاجة إلى تأمل لكونه عالماً بجميع الأشياء فيعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صْبِرُواْ} على مشقة الاستدلال في معرفة التوحيد والنبوة والمعاد وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات نحو الفلاسفة وعلى مشقة أداء الواجبات والمندوبات وعلى مشقة الاحتراز عن المنيهات وعلى شدائد الدنيا من المرض والفقر والخوف. {وَصَابِرُواْ} على تحمل المكاره الواقعة بينكم وبين غيركم فيدخل فيه تحمل الأخلاق الرديئة من أهل البيت والأقارب والجيران، وترك الانتقام ممن أساء والعفو عمن ظلم والإيثار على الغير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والمصابرة مع المبطلين وحل شبههم {وَرَابِطُواْ} أي جاهدوا القوى التي هي مصادر الأفعال الذميمة من الشهوة والغضب والحرص. أو المعنى انتظروا الصلاة بعد الصلاة {وَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} في مخالفة أمره وبتقوى الله يحصل دفع القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي كي تنتظموا في زمرة الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل كروب فظهر أن هذه الآية مشتملة على علوم الأصول والفروع وعلى الحكم والأسرار.